سؤالات الدكتور/ محمد بن أحمد إسماعيل المقدم

إلى الدكتور/ مصطفى حلمي

استكمال السؤال الثالث

شخصيات إسلامية معاصرة

بديع الزمان النورسي - تركيا

السرهندي - الهند

ابن باديس - الجزائر

محمد عبد الله دراز - مصر

توزيع

دار الخلفاء الراشدين
الإسكندرية - أبو سليمان - ش عمر
أمام مسجد الخلفاء الراشدين
٠١٠٠٦٧١٤٧٦٨ - ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

دار الفتح الإسلامي
الإسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٠٥٠١٣١٥١ - ٠١٠٩٤٥٥٥١٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

دار الخلفاء الراشدين

الطبعة الأولى

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع: ٢٣٤٨٤ / ٢٠٠٩

الإدارة : ٠١٠٠٦٧١٤٧٦٨ المبيعات: ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

المُقدِّمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما بعد:

فكنت أود أن أعيد هنا ما قلته في مقدمة الجزء الثالث عن «**شخصيات إسلامية معاصرة**» بلا إضافة، لولا أن ثورة يناير بمصر هي حدثٌ جلل لا نستطيع تفادي تسجيل آثاره على العقل والوجدان، وعلى الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي لشعب مصر، وامتداده إلى شعوب البلاد العربية والإسلامية.

وكان من أبرز تداعيات الثورة في المرحلة الحالية هو: إفصاح الجماهير عن رغبتها في سيادة الشريعة الإسلامية، وتعبيرها عن الحنين الجارف للعودة إلى الإسلام، حيث حجبته عنها قوى الاستعمار وأعوانه طيلة نحو ستة عقود، وعبّرت الأصوات المطالبة بتطبيق شرع الله عن انقلاب حقيقي بميزان المقاييس السياسية والاجتماعية

ولئن جاء هذا مفاجأة لدى المؤسسات البحثية الغربية، ولكنه لم يفاجئنا؛ لأن الدارس لأحوال المجتمعات الإسلامية بعامة يرصد التراجع الملحوظ للتيار الليبرالي المتغرب، بالرغم من تجنيد أجهزة الإعلام المكثف، والمعونات المالية الآتية من الخارج بملايين الدولارات.

والخطأ الفادح الذي تقع فيه دوائر البحث والرصد في البلاد الغربية أنها لا تريد الاعتراف بأن الإسلام هو عقيدة الأمة وتراثها الحضاري الذي عاشت في ظله طوال أربعة عشر قرنًا من الزمان والنبات الطبيعي الذي تغذت به، ولن تلفح أية محاولات -مهما بلغت من قوة وجبروت- إقصاء الأمة عن ثقافتها الإسلامية.

ومما يتصل بموضوع الشخصيات الإسلامية التي نعرضها في هذه الأجوبة، أنها حملت الشعلة وسط الأجواء المظلمة التي فرضها الاستعمار بوسائل الغزو الثقافي، والمحاولات الدؤوبة منذ العصر الناصري التي اتخذت من شعبنا حقل تجارب للماركسية الملحدة ألبستها ثياب الاشتراكية[1]، فأفقدت الأمة أجيالًا من أبنائها، وكانت

---

(١) يذكر بعض المترجمين لتاريخ عبد الناصر، أنه انتمى في مرحلة من مراحل حياته للحزب الشيوعي الذي أسسه اليهودي هنري كوريل باسم «حدتو» يقول الأستاذ محمود الشاذلي: «وكان من أعضائه جمال عبد الناصر وخالد محيي الدين =

المصيبة الكبرى والحصاد المرّ الذي مازال في حلوقنا هو ضياع القدس، ووقوع المسجد الأقصى السليب في أيدي اليهود، ومحاولة معاندة القدر الإلهي الذي كشف عداء اليهود بقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة:٨٢].

نعم حاول ذلك السادات وهو أحد ضباط انقلاب يوليو ٥٢ بعقد إتفاقية سلام وهي في حقيقتها استسلام وخنوع وقبول مذلّ لرهن سيناء لدى الإسرائيليين[1]، وقبل ذلك محاولة كسر إرادة الأمة التي لابد أن تسترد قطعة الأرض السليبة -فلسطين- وهي أرض المسلمين

= ويوسف صديق وأحمد حمروش وكمال رفعت وغيرهم» (ص:٦٩) من كتابه «فتح القسطنطينية» مكتبة المختار بمصر بدون تاريخ.

(١) تغيرت المواقف في العصر السابق، فبعد أن كنا منذ نكبة فلسطين ١٩٤٨ ننادي برفع راية الجهاد والمقاومة وانتزاع أرض فلسطين المغتصبة من أيدي اليهود، أصبحت وسائل الإعلام تردد شعار السلام وأنه الخيار الاستراتيجي!
وقال السلطان عبد الحميد عندما عرض عليه اليهود حل الأزمة المالية للخلافة العثمانية مقابل السماح لهم بدخول القدس... قال: «لماذا نترك القدس؟ إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان، وستبقى كذلك فهي من مدننا المقدسة وتقع في أرض إسلامية، لابد أن تظل القدس لنا».
«مقدمة مذكرات السلطان عبد الحميد» بقلم الدكتور محمد حرب عبد الحميد (ص:١٢) دار الأنصار بالقاهرة ١٩٧٨م.

من مغتصبيها مهما طال الزمن، ومهما عظمت التضحيات بالأموال والأنفس، والهدف بمشيئة الله تعالى وعونه ليس بمستحيل التحقيق، بل هو في قدرة الأمة الإسلامية بإمكانياتها التي تتفوق على قدرات إسرائيل مهما إستمدت المعونات العسكرية والمالية، وليس أدل على ذلك من حرب أكتوبر ١٩٧٣ التي أجهضتها الخيانة كما صورها الفريق سعد الدين الشاذلي في مذكراته، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «عندما قررت أن أبدأ في كتابة مذكراتي في أكتوبر ٧٦ -أي بعد ثلاث سنوات من حرب أكتوبر ٧٣- لم يكن هدفي فقط هو كشف أكاذيب السادات التي عمد إلى تأليفها جزافًا بعد أن وضعت الحرب أوزارها؛ بل كان هدفي الأول هو إعطاء صورة حقيقية للأعمال المجيدة والمشرفة التي قام بها الجندي المصري في هذه الحرب...

إن من المؤسف حقًا أن السادات ورجاله لم يستطيعوا تقديم هذه الحرب في الإطار الذي تستحقه كعمل من أروع الأعمال العسكرية في العالم»[1].

كذلك يزيدنا إيضاحًا بقوله: «إن مهاجمة رئيس نظام أتوقراطي

---

(١) الفريق سعد الدين الشاذلي «مذكرات حرب أكتوبر» ط. ٤ (ص:٤) - دار بحوث الشرق الأوسط الأمريكية - سان فرانسيسكو ٢٠٠٣م.

وفضح أكاذيبه أو خداعه ليس بالأمر السهل، إنه يحتاج إلى الوثائق التي لا يتطرق إليها الشك، ويحتاج إلى شهود دوليين، وإلى مناخ إعلامي مناسب...

وفيما بين أكتوبر ٧٧ ومايو ١٩٧٨ ارتكب السادات ثلاثة أخطاء كبيرة تسببت بمجموعها في خفض شعبيته في مصر والعالم العربي إلى الحضيض، ففي نوفمبر ٧٧ قام بزيارته المشئومة إلى القدس، حيث أعطى الكثير لإسرائيل دون أن يحصل على شيء لقاء ما أعطى.

وفي إبريل ٧٨ نشر مذكراته، وبذلك كان أول رئيس دولة في العالم يقوم بنشر مذكراته وهو ما يزال في السلطة، لقد كان نشر هذا الكتاب عملًا لا أخلاقيًا إستغل فيه السادات منصبه كرئيس دولة وحاكم بأمره يملك وسائل الإعلام، يعطي ويمنع، يرقّي ويفصل، ينصر ويقهر، ليختلق الأكاذيب على كل من يخالفه في الرأي.

وفي مايو ٧٨ إرتكب الخطأ الثالث بإجراءاته التعسفية لإسكات كل رأيٍ حُرٍّ في البلاد»[1].

وكان الشاذلي يتوقع رحمه الله تعالى من أعوان السادات أن

---

(١) المصدر السابق (ص:٥، ٦).

يقابلوه بالنقد أو التكذيب، فكتب يحذّرهم: «ولكن القليلين ممن باعوا أنفسهم للسادات وربطوا مصيرهم بمصيره: سوف يجدون أنفسهم في كرب شديد؛ فإما أن يقولوا الكذب -وهم يعلمون الحقائق- فيفقدوا بذلك سمعتهم أمام الناس وأمام أبنائهم وأمام التاريخ، ناهيك عن حساب الله ﷻ الذي يمهل ولا يهمل، إني أرثي لهؤلاء وأدعو الله أن يوفقهم إلى الصراط المستقيم، ولكني أحذّرهم بأنني قادر على إثبات كل ما كتبت في هذه المذكرات»[1].

ولكنه مع وصف القلّة من رجال السادات، أشاد بفخر بكل ضابط «وكل جندي أسهم في تلك الحرب التي استعادت للجندي المصري كرامته وتاريخه المجيد، لقد كانوا هم الأصحاب الحقيقيين لهذه المذكرات، لقد صنعوها بدمائهم وشجاعتهم، وكانوا شهود عيان لكل أحداثها، وأن بعض الحوادث التي ذكرتها في هذه المذكرات يعلمها الألوف منهم وبعضهم الآخر يعلمها المئات أو العشرات؛ إن مئات الألوف منهم سوف يستقبلون هذه المذكرات بحماسٍ شديد»[2].

والحق أن زيارة السادات للقدس كانت صدمة قاسية لجماهير

(١) المصدر السابق (ص:٧).
(٢) المصدر السابق (ص:٦، ٧).

المسلمين، يقول الشيخ أحمد المحلاوي -حفظه الله تعالى-: «السادات كان حاكمًا عنده رؤية، وكنت أحترمه لأنه أفرج عن الإخوان المسلمين، ودعّم الأنشطة الإسلامية، وعمل حرب رمضان، وحارب الشيوعيين[1]... وكانت علاقتي به طيبة حتى عندما أعلن أنه مستعد للذهاب إلى آخر الدنيا من أجل حقن دماء أبنائه، وقلت: هذا رجل مراوغ ومناور، يحارب إسرائيل بنفس سلاحها في المناورة والخداع لأنها تضرب العرب وتعتدي عليهم، ثم تتباكى وتستغيث بالعالم لحمايتها منهم.. لكن عندما زار القدس؛ نفضت يدي منه، وأصبحت معارضًا عنيفًا لسياسته...».

إلى أن يقول: «فقدموني إلى المدعي العام الاشتراكي بتهمة مهاجمة الرئيس وسياساته ولم أنكر تهمة واحدة مما قلته عن معارضتي لمعاهدة السلام مع إسرائيل.. ولما ثبت أنها قضية رأي وأنها معارضة بناءة اعتقلوني في صيف ١٩٨١م»[2].

---

(١) وقال أيضًا في مجال وصفه للسادات «عمل حاجات كثيرة كويسه، لكنه ضيعها بمعاهدة السلام السيئة مع إسرائيل».

(٢) جريدة «اللواء الإسلامي» العدد ١٥٤٦ الخميس ١٧ شوال ١٤٣٢هـ - ١٥ سبتمبر ٢٠١١م.

وتكشف الأيام عن بنود سرية لمعاهدة «السلام» «كامب ديفيد» لم تكن معروفة لدينا، إذ لم يكتف السادات بكبح جماح الأمة في الرغبة في إسترداد الأرض السليبة -فلسطين- بل وافق على بنود من شأنها تجميد المجتمع المصري ومنعه من اللحاق بالعصر فعرقل التقدم العلمي وهو أحد أسس أية نهضة معاصرة.

فقد كانت لهذه المعاهدة شروط «ومن هذه الشروط إلغاء كل المحاولات العلمية الجنينية... مثل معهد الطاقة النووية الذي كان يضم مشرّفة وآخرين، ووقف البعثات العلمية إلى روسيا، ووقف الأبحاث في الفيزياء والكيمياء التي كانت ضمن مقررات معهد الطاقة النووية، وكما نعرف فإن الأبحاث تولد الأبحاث، فإذا توقف البحث فماذا ننتظر؟

ويستطرد الدكتور رشدي راشد العالم العربي المقيم في فرنسا:

«فالبحث في الفيزياء مثلًا يقتضي تكوينا علميًا في الرياضيات والكيمياء ومجالات علمية أخرى، وهذه قيمة البحث الذي يساعد على نوع من النهضة العلمية وليس مجرد الشكل النفعي لها»[1].

---

(١) إبراهيم فرغلي - مقال بعنوان «الأصول التكنولوجية في العالم الافتراضي»

ويتضمن هذا الكتاب ترجمة مختصرة لكلٍّ من:

١- الإمام سعيد النورسي بتركيا.

٢- الشيخ السرهندي بالهند.

٣- الإمام عبدالحميد بن باديس بالجزائر.

٤- الدكتور محمد عبدالله دراز بمصر.

وختامًا لهذه المقدمة التي طالت بعض الشيء للضرورة، لا يسعني إلا أن أسأل الله تعالى أن ينفع المسلمين بهذا الكتاب، وأن يتقبله مني وأن يجازي عني خير الجزاء الإخوة الأفاضل الذين أسهموا في إخراجه للقراء.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

وصلِّ اللّهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية في ٤ ذو القعدة ١٤٣٢ هـ

٢ أكتوبر ٢٠١١ م.

(ص:١٤٩) مجلة «العربي» الكويتية العدد ٦٣٤ سبتمبر ٢٠١١.

(١) بديع الزمان سعيد النورسي

تمهيد:

من نعم الله تعالى على هذه الأمة الإسلامية أنه يبعث لها كل مائة سنة من يجدد لها دينها كما ورد في حديث النبي ﷺ.

وفي تاريخنا الإسلامي الحديث، ظهر ثلاثة مجددون قاموا بدور الحفاظ على عقيدة الأمة، وتجنيبها «مخاطر الذوبان في عقائد أخرى زائغة، أو السقوط في شراك الحضارة الوثنية القائمة»[(١)].

أولّهم الإمام المجدد الزاهد الشيخ أحمد بن عبد الأحد الفاروقي السرهندي في الهند، والثاني الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لثورة الجزائر الذي أنقذ بلاده من براثن فرنسا بعد نحو ١٣٠ عامًا من الاستعمار الاستيطاني المشابه لاستعمار اليهود لأرض فلسطين، وثالثهم الإمام المجاهد بديع الزمان سعيد النورسي في تركيا[(٢)].

---

(١) د/ عبد الودود شلبي - بحث بعنوان «سعيد النورسي: المصلح الذي تجسدت في دعوته كل حركات التجديد والإصلاح» (ص:٩٩) بكتاب بعنوان «بديع الزمان سعيد النورسي» في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي استانبول طبعة موزلر للنشر - مدينة نصر بالقاهرة بدون تاريخ (ص:٢٧-٢٩).

(٢) المصدر السابق (ص:١٠٣).

يقول الدكتور عماد الدين خليل في أسلوب خطابي بليغ لبيان آثار جهود الإمام النورسي: «أيها المعلم والشيخ والأستاذ... قم؛ قم لترى ما الذي صنعته يداك... البذار الذي غرسته يشق الأرض وينهض مستويًا على سوقه ... ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾... قم لترى العالم الذي تحدثت عنه طويلًا... قلعة الإلحاد الفكري في الشرق «تركيا»، وهي تتهاوى فتصير حطامًا... وقلعة الفساد الخلقي في الغرب يأكله الإيدز، والمورفين...

قم لترى تلامذتك يملأون السهل والجبل.. تغص بهم الطرقات والساحات ... ويملأون مقاعد الدراسة والجامعات... ويكفيك شرفًا أيها الأستاذ أن تغادر الدنيا والشموع التي أوقدتها في حلكة العالم؛ لا تزال تشتعل لكي يضيء الطريق للمدلجين في الظلمات»[1].

وهو الإمام النورسي الذي يعبر بجهاده عن الصراع بين الحق والباطل في ذروة غروره وبطشه المتمثل في جرائم أتاتورك الذي حطم الخلافة الإسلامية بعد نحو أربعة عشر قرنًا منذ وفاة النبي ﷺ،

---

(١) المصدر السابق (ص: ٢١٤).

وكانت رمزًا لوحدة الأمة الإسلامية وملجأً لشعوبها عند النوازل، ولم يكتف بهذه الجريمة الكبرى بل أعلن الحرب على الإسلام بوسائل لم تتفتق عنها أذهان عتاة المجرمين من أعدائنا طوال تاريخه، فصح وصف جرائمه بأنها «الأيديولوجية الكمالية اللادينية»[١].

وقد أخذ على عاتقه تنفيذ المشروع التغريبي مستخدمًا قوى البطش العاتية؛ إذ لم يتورّع عن تعليق معارضيه على المشانق وفق محاكم عسكرية دفنت العدل مع ضحاياها[٢].

وكان مولد الإمام النورسي في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، أي في أواخر عمر الدولة العثمانية في نهاية عمرها، حيث عاصر تكالب الأعداء للقضاء عليها، إذ كان الحقد الأسود على الإسلام يحركهم وكانوا يخططون لإسقاط الخلافة حتى يتمكنوا من إقامة دولة إسرائيل لأن العثمانيين كانوا سدًّا منيعًا في مواجهتهم «ورغم ما بذله السلطان عبد الحميد ليبقي دولة الإسلام على قدميها خلال ٣٣ سنة؛ إلا أن المؤامرة كانت أحكم من أن تترك دولة الخلافة

---

(١) كمال السعيد «الدين والدولة في تركيا... صراع الإسلام والعلمانية» (ص:١٣٩) مكتبة الأسرة بمصر ٢٠٠٩م.
(٢) المصدر السابق.

تحيا، وكان أعوان الغرب والدوائر الأجنبية قد زرعوا عملاءهم بإحكام في قلب الدولة.

ولم يستطع السلطان رغم نيته الطيبة أن يحول دون سقوط الخلافة، أو يحفظ إسمه من التشويه الذي شوهته له دعاية الغرب.. ومن هذا الجو الدرامي المشحون ولد سعيد النورسي فحمل هموم الأمة وساهم في تنويرها»[١].

وفي هذا الجو المسموم تم حذف دروس الدين من المدارس، كما حذفت كلمات الخالق جل شأنه والرب والله جل جلاله من كتب المدارس ووضعت بدلًا منها كلمات الطبيعة والتطور والوطنية والقومية»[٢].

يقول الأستاذ أحمد بهجت: «في هذا الجو الكئيب كان الإسلام يتعرض لحرب علنية تشنها الحكومة بكل أجهزتها، وفي هذه السنوات الحالكة السواد، أشعل سعيد النورسي شمعة لتبديد الظلام، وقال في تقديم نفسه: إنني لست شيخ طريقة، فالوقت الآن

(١) أحمد بهجت «سعيد النورسي: الرجل والدور» (ص:٤٢) كتاب «بديع الزمان سعيد النورسي» في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي -استانبول ١٩٩٢.
(٢) المصدر السابق (ص:٤٦).

ليس وقت طرق صوفية، بل وقت إنقاذ الإيمان»[١].

وبرغم من محاكمة بعض أتباع الشيخ النورسي؛ فقد واصلوا نشاطهم في الستينيات بنشر تعاليمهم الدينية الداعية إلى التمسك بالإسلام قلبًا وقالبًا، مع اعتبار الزيّ الإسلامي جزءًا من الإسلام، كما كانت الجماعة تؤمن بأن الإسلام دين ودولة وحياة وشريعة، وقد طلب الشيخ النورسي إلى مندريس -رئيس الوزراء حينذاك- أن يقرر تدريس مجموعة خطبه المسماة «رسائل النور» كجزء من البرنامج التعليمي، واعتبر أهل النور العلمانية شأنها شان اللادينية مضادة للإسلام، فالإسلام يمكن أن يكون أساسًا للحكم، فالقرآن الكريم هو الدستور والشريعة هي القانون، وفي أواخر الستينيات أصبح النشاط الإسلامي ملحوظًا جدًّا، حيث عقد اجتماع بإسم «حماة المقدسات» أُعلن فيه أنه لا يمكن للدين أن يقام دون وجود دولة تحميه، وكان من الواضح أن الغليان الجماهيري ينبع عن قواعد فكرية وسياسية تعمل بشكل سري[٢].

---

(١) المصدر السابق (ص:٤٧).

(٢) د/ إبراهيم الدسوقي شتا «الحركة الإسلامية في تركيا» صفحات (٩٣، ٩٥-٩٦) باختصار - ط. الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م. =

ولد سعيد النورسي في قرية «نورس» في شرق الأناضول وفي أسرة كردية صالحة تقية ١٢٩٤هـ - ١٨٧٧م.

وانتقل في القرى والمدن بين الأساتذة والمدارس ليتلقى العلوم الإسلامية، وسنحت له الفرص لمطالعة الكتب العلمية الإسلامية في علم الكلام والمنطق والتفسير والحديث والفقه والنحو.

كذلك انكب على دراسة الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء وعلم طبقات الأرض والفلسفة الحديثة والتاريخ والجغرافية «حتى تعمق فيها إلى درجة إفحام الأساتذة المختصين، فسمي لأول مرة «بديع الزمان» اعترافًا من أهل العلم بذكائه الحاد وعلمه الغزير»[(١)].

= قال أحد علماء الدين وهو على المشنقة: «إن القبعة من علامات الكفر، ولبسها كفر، أنا أحمد الله أنني أموت دون أن ألبسها»، ويروي أحد شهود العيان من المسنين: «كنت أمرّ من الميدان الذي كان يتدلى فيه المشنوقون، لم يكن هناك أحد باستثناء بعض الجندرمة -الجند- وبدأت الريح تهب، ولا أستطيع أن أنسى منظر اللحى البيضاء وهي ترف مع الريح». المصدر السابق (ص:٣٩ - ٤٠).

ويصف الدكتور كمال السعيد جرائم أتاتورك بأنها شكلت اصطدام وتحولات عنيفة، وأنها حالة فريدة لم يعرفها العالم من قبل، حتى إبّان الحكم اللّينني الستالين في روسيا الشيوعية (ص:١٣٣).

(١) د/ محسن عبد الحميد «النورسي متكلم العصر الحديث» (ص:١١) - ط. سوزلر للنشر - مدينة نصر ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

وحفلت حياة الإمام بالمضايقات المستمرة والمحاكمات الظالمة، ولكنه شق طريقه بقوة وأخذ يرشد تلامذته ويدرسهم «رسائل النور» حتى وفاته في الخامس والعشرين من رمضان ١٣٧٩هـ الموافق للثالث والعشرين من مارس ١٩٦٠م[1].

ونجتزئ من حياته الحافلة بالجهاد واقعتين:

أحدهما مع أتاتورك الذي بعث إليه يقول: «نحن فخورون بك كزعيم لكنك لسوء الحظ خلقت الخصام وبذرت الشقاق والفتنة بتأكيدك على أهمية أداء الصلاة».

فرد عليه بديع الزمان منتهرًا وموبخًا إياه باحتقار قائلًا: «أترفض يا باشا الصلاة؟

الصلاة هي عماد الدين والتي لا يعرف المرء مسلمًا إلا بها... أترفض الصلاة وتنكرها؟ إن من ينكر الصلاة يا باشا مرتد عند الله وأنت مرتد وحكمك أنك كافر»[2].

وهناك واقعة أخرى حدثت عندما كان جنديًا بالجيش التركي في

---

(١) المصدر السابق (ص:٤٩).

(٢) مريم جميلة «شهداء الحركة الإسلامية في العصر الحديث» (ص:١٦) - ترجمة طارق السيد خاطر - ط. المختار الإسلامي - بدون تاريخ.

الحرب العالمية الأولى وقد أبلى فيها بلاءً حسنًا وأظهر بسالة غير عادية ولكنه وقع في الأسر، ولما قام القائد الروسي بزيارة معسكر أسرى الحرب، هب الأسرى جميعًا واقفين لتحيته ما عدا الشيخ بديع الزمان مما لفت نظر القائد فسأله: ألا تعرفني؟ فأجابه: أجل أعرف أنك الجنرال نيكولاس.. كل ما في الأمر أنني مسلم، وأعتبر المسلم أعلى شأنًا من أي كافر.. إنني أعبد الله ﷻ، لذلك لا يمكنني أن أعيرك اهتمامًا»[1].

وصدر الحكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص، وحثه زملاؤه للذهاب إلى الجنرال والتوسل إليه لتخفيف الحكم فأبى شاكرًا لهم صنيعهم بقوله: «قد يكون هذا الحكم هو جواز سفري إلى جنة الخلد».

ولم يملك الجنرال الروسي أمام شجاعته إلى أن زاره ومعه بعض كبار القادة وهو يربتْ على كتفه قائلًا: «بديع الزمان! أرجو منك قبول المعذرة، وأن تسامحني، من فضلك سامحني، لقد قمت تلقائيًا بإلغاء حكم الإعدام تقديرًا لإيمانك القوي، وتقديرًا لشجاعتك وإخلاصك الطاهر، وتقديرًا لشخصك النظيف النبيل»[2].

---

(١) المصدر السابق (ص:١٤-١٥).

(٢) المصدر السابق (ص:١٤).

موقفه من الشريعة:

سنقص هذه الواقعة ليتضح لنا مدى إستمساك الإمام النورسي بالشريعة فقد أسس حزبًا منافسًا للجنة التي كان يسيطر عليها الماسونيين أتباع أتاتورك وسماه «الإتحاد المحمدي» فقبض عليه وأعدم تسعة عشر من أتباعه، ثم التفت القاضي «خورشيد باشا» إليه وسأله: «هل مازلت تريد تطبيق الشريعة؟» فأجابه الشيخ: «لو أعطاني الله سبحانه ألف روح لشرفني التضحية بهم جميعًا في سبيل الله نصرة لدينه الحنيف».

ولما صدر حكم بإعدامه قامت ثورة شعبية عامة اضطرت المحكمة العسكرية أمامها إلى تبرئة ساحته(١).

وقاوم السفور الذي أمر به أتاتورك مثبتًا أن حجاب المرأة عمل بالشريعة الربانية الفطرية التي تصون النساء من المهانة والسقوط في الرذيلة، ولكن التشريعات الغربية عندما أطلقت حرية المرأة أضرت بها ضررًا كبيرًا(٢).

---

(١) الكاتبة الأمريكية مريم جميلة «شهداء الحركة الإسلامية في العصر الحديث» (ص:١١) ترجمة طارق السيد خاطر - ط. المختار الإسلامي بدون تاريخ.

(٢) د/ محسن عبد الحميد «النورسي، متكلم العصر الحديث» - سوزلر للنشر - مدينة نصر - القاهرة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

وعارض التصوف في رسائله «إن هذا العصر ليس بعصر تصوف وطريقه، وإنما هو عصر إنقاذ الإيمان»[١].

وكان الإمام قد درس الفلسفة دراسة وافية بمدارسها المتنوعة منذ عصر اليونان إلى زمانه، ولكنه رفضها ورفض مناهجها المستقلة عن الدين الحق الذي هو الإسلام[٢].

ويصف حكمة القرآن الكريم بأنها تقبل الحق نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلًا من القوة، وتجعل رضى الله سبحانه ونيل الفضائل هو الغاية بدلًا من المنفعة، وتتخذ دستور التعاون أساسًا في الحياة بدلًا من دستور الصراع، وتلتزم برابطة الدين بدلًا من العنصرية والقومية السلبية[٣].

ومن كلماته دفاعًا عن «رسائل النور» التي كان يقبل على قراءاتها فئات المجتمع التركي من عمال وطلبة وفلاحين وموظفي الحكومة. قال: «ليس من العار علينا كمسلمين أن نترك للماسونيين شتم الإسلام وتشجيع الزنا والفجور وشرب الخمر ولعب الميسر كجزء من الحملة

(١) المصدر السابق (ص:٢٠٥).
(٢) المصدر السابق (ص:١٨٨).
(٣) المصدر السابق (ص:١٩١).

القومية للبلاد لتطبيع اقتباس الحضارة الغربية في الوقت الذي يزج بي أنا ورفاقي في غياهب السجن، وأحاكم لأنني أدعو لفلاح الناس وأنشر رسالة القرآن وأخدم في سبيل الدعوة إلى الله سبحانه ﷻ.

لقد اتهمت بأنني متمرد على الديمقراطية في حين أنني الواقع بطلها الأوحد منذ نعومة أظافري...»[١].

وتلخص هذه الكلمات موجزًا للرسالة التي عاش من أجلها، والصراع مع أتاتورك وأعوانه الذين أرادوا فرض النموذج الغربي على الشعب التركي بعد الإطاحة بالخلافة العثمانية وإلغاء الشريعة الإسلامية وإقصاء اللغة العربية حتى فرضوا الأذان للصلاة باللغة التركية.

وتلخص الكاتبة الأمريكية مريم جميل رحلة حياته الحافلة بالكفاح وأثرها الممتد حتى الآن عبر رسائله وتلاميذه بقولها: «بديع الزمان النورسي مصلح بديع من عظماء المصلحين في التاريخ الإسلامي الحديث، أرسله الله ﷻ ليجاهد لنصرة دينه وإحياء الإسلام، فقد ظهر بديع الزمان النورسي في تركيا ليحارب شرور ومفاسد النظام المرتد

---

(١) مريم جميل: «شهداء الحركة الإسلامية في العصر الحديث» (ص:١٧).
وجاءت هذه الكلمة أثناء دفاعه عن نفسه وعن تلامذته أمام المحكمة بتهمة «التآمر لقلب نظام الحكم»!.

لمصطفى كمال أتاتورك، وبالرغم من أن عقودًا من الزمن قد مرت بعد وفاة الطاغية الديكتاتور مصطفى كمال أتاتورك، إلا أن قوة تلاميذ وأتباع بديع الزمان تتعاظم بسرعة يومًا بعد يوم.

فهؤلاء التلاميذ والأتباع يبذلون كل ما في استطاعتهم لإحداث الصحوة والنهضة الإسلامية بالطرق السلمية من خلال الإشتغال الشاق في المهمة عبر الأنشطة الثقافية ودور ومؤسسات التربية والتعليم والوعظ والإرشاد...إلخ[١].

موقفه من حضارة الغرب:

يرى الدكتور عبد الودود شلبي أن موقف سعيد النورسي مطابق لموقف محمد إقبال من الحضارة الغربية، فكلاهما لم تخدعه الظواهر البراقة الزائفة أو طبول الدعاية الكاذبة لقد نظرا إلى جوهر الحضارة وروحها، وتعمقا في فهم خفاياها وأسرارها[٢].

وقد وصف الشيخ سعيد النورسي هذه الحضارة بقوله: «.. تنشر الكفر وتثبت الجحود، تُرى هل يمكن أن يسعد إنسان مجرد تملكه

---

(١) المصدر السابق (ص:٧).

(٢) د/ عبد الودود شلبي بحث بعنوان «سعيد النورسي المصلح الذي تجسدت في دعوته كل حركات الإصلاح» (ص:١١٦).

ثروة طائلة وترفله في زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه وفي وجدانه وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة؟ وهل يمكن أن نطلق عليه أنه سعيد»[1] ؟!

السمات المنهجية لرسائل النور:

لخصها الأستاذ محمد رشيد عبيد في السمات الآتية:

١- إعتماد الكتاب والسنة الصحيحة مصدرين معصومين، ونفي العصمة والكمال عن المضامين المعرفية المتحصلة بطرق أخرى عقلية أو روحية.

٢- تقديم اجتهادات الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على ما تم بعد عصرهم من اجتهادات.

٣- عدم جعل العلم أو العقل بما يحملانه من طوابع النسبية والقصور حكمين على الحقائق الدينية اليقينية.

٤- الاستشهاد بالمعطيات العلمية الزمنية لتأصيل قضايا الإيمان وتوصيل مناهج الإسلام وبيان محاسنه.

٥- احترام الحدود الفاصلة بين عالم الغيب غير المسموح نصًا

---

(١) المصدر السابق (ص:١١٧).

باختراقه، وبين عالم الشهادة المسخر للاكتشاف والاستثمار.

٦- التعبير الأدبي عن بعض الحقائق الدينية وبما يحمله من مجازات لغوية.

٧- الأسلوب السهل الممتنع والغامض أحيانًا والتكرار لبعض الأفكار في صيغ مختلفة والانتقال من المحسوس إلى المعلوم[١].

وقد بلغت رسائل الشيخ النورسي وأبحاثه نحو المائة والثلاثين رسالة، وصلت إلى مختلف أنحاء العالم، وترجمت إلى اللغات العربية والإنجليزية والكردية والفارسية والأردية وغيرها[٢].

ويبدو من ترجمة حياته أنه كان واسع الاطلاع، مُلمًا بمؤلفات ابن تيمية وابن القيم، حيث وصفهما «بالجهبذين الذهبيين و«المثيرين للإعجاب» و«المشهورين»، ويصف كتبهما كذلك بأنها من المؤلفات ذات الجاذبية القوية جدًا والعجيبة جدًا[٣].

أما بالنسبة لمحيي الدين ابن عربي فقد وصفه بقوله: «لا يسعني الوقت الكافي لوضع ميزان بين الإفراط والتفريط بحق هذا

---

(١) محمد رشدي عبيد «ملامح تربوية في رسائل النور» (ص:٩٤).

(٢) المصدر السابق (ص:١٨٢).

(٣) المصدر السابق (ص:١١١).

الشخص فأكتفي بما يأتي «أنه لا ينبغي أن يكون مرشدًا أو قدوة في جميع ما كتبه رغم أنه شخص مقبول ومجتهد ولكن لمخالفته القواعد الثابتة لأهل السنة فإنه يمضي غالبًا دون ميزان في الحقائق، لذا أفادت بعض أقواله -ظاهرًا- الضلالة، غير أنه بريء من الضلالة، والكلام قد يبدو كفرًا بظاهره ولا يكون القائل به كافرًا».

ويحدد رأيه في كتبه بختام الرسالة قائلًا: «لذا فإن قراءة كتب محيي الدين مما يضر في زماننا هذا، وبالأخص آراءه في وحدة الوجود»[١].

كيف أزاح تلامذة النورسي الأيديولجية الكمالية اللادينية؟:

إنها قصة طويلة واقعية لابد أن تروى للأجيال الشابة من المسلمين لتقوية عزائمهم وتثبيتهم في مواقفهم الدفاعية عن الإسلام لأن ما حدث في تركيا هو صورة نمطية معبرة عن واقع بلاد المسلمين بين المثقفين المسلمين وخصومهم من العلمانيين.

يصور الدكتور كمال السعيد حبيب ذلك بقوله:

«المهمة الأولى للمثقف المسلم في تركيا هي الدفاع عن الإيمان

(١) المصدر السابق (ص:١١١-١١٢).

والعقيدة والفكرة الإسلامية في مواجهة إكتساح الأفكار المادية واللادينية... وبينما كان دور المثقف الإسلامي هي المقاومة؛ كان دور المثقف العلماني هو الالتحاق، وبينما كان حظ المثقف الإسلامي التهميش والحصار والهجرة من الوطن، كان حظ المثقف العلماني التواجد في المراكز المتقدمة متقاسمًا مع النظام المغانم والأضواء والحضور»[1].

وقد عرض الدكتور كمال سعيد للتطورات التي حدثت بتركيا بالساحتين الداخلية والخارجية، واتخذت خطوات لعودة تركيا إلى أحضان الأمة الإسلامية من جديد بعد أن سلخها أتاتورك منها، فقام نجم الدين أربكان بإنشاء رابطة الدول الإسلامية الثمانية في ١٩٩٧/٦/١٥م، وهي تركيا ومصر وباكستان وإيران وبنجلاديش ونيجيريا وماليزيا وأندونيسيا، والغرض تأسيس سياسة خارجية تستند إلى التوحيد مع العالم الإسلامي انطلاقًا من مفهوم الأمة الإسلامية عن طريق الأمم المتحدة الإسلامية والسوق الإسلامية المشتركة والجيش

---

(١) د/ كمال سعيد حبيب «الدين والدولة في تركيا - صراع الإسلام والعلمانية» (ص:٨١-٨٢).

الإسلامي المشترك ومشروع العملة الإسلامية المشتركة «الدينار الإسلامي»، ومنظمة الدول الإسلامية للتعاون الثقافي[1].

وقد سجل الدكتور كمال السعيد الخطوات التي خطاها أربكان ملخصًا مشروعه الفكري الذي تبناه حزب الرفاة:

«وقال نجم الدين أربكان: نحن لسنا حزبًا سياسيًا ولكننا حركة «الملي جورش» وهي تحمل مشروعًا للنهوض التركي مستندًا إلى الأيدولوجية الإسلامية..».

وقال: «نحن كالشرطة نمسك الأذن الصهيونية ونقاوم السيناريو الصهيوني..»[2].

أما ما يعنيه حزب الرفاة بفكر الأمة، فهو الفكر الذي ينبع من شعبنا، ولم تكن أمتنا في تاريخها الطويل قائمة على القوة والجبروت إنما هي أمة صاحبة فكر، وقد أنتجت دولًا عظيمة مثل الدولة السلجوقية، والدولة العثمانية، وقد عكست عبر التاريخ أفضل مثال فيما يتعلق بحقوق الإنسان والسلام والعدالة، وهي أمة ذات

(١) المصدر السابق (ص:٢٨٦-٢٨٧).
(٢) المصدر السابق (ص:٢٣٣-٢٣٦).

خصائص ناصعة ومشرّفة، وأمة لديها هذه المزايا لا ينبغي لها أن تكون خاضعة للغرب الذي يقوم على التسلط ولا يليق بها أن تقلده وتسير وفق خطواته.

ثم جاء فوز حزب العدالة والتنمية، والذي لم يكن متوقعًا بهذا الحجم، جاء عنوانًا لفشل العسكر في الحملة التي دشنوها ضد ما أطلقوا عليه استئصال «الأصولية» أو «الرجعية».

ويُعلق على ذلك الدكتور كمال السعيد حبيب بقوله: «على العسكر أن يدركوا أن تطرفهم في مواجهة التوجهات الإسلامية في تركيا لن يقضي عليها بل سيؤدي إلى زيادة تصويت الناخبين لهم»[(١)].

ولأربكان تصريحات أطلقها بمكة المكرمة قال فيها: «تخلينا عن القرآن ما يقارب الخمسين سنة الماضية، إن الدين والدولة فُصلا، ويتعين علينا أن نعمل من أجل كلمة القرآن كي تكون فاعلة مرة أخرى، ولهذا الهدف نحن في حاجة إلى الجهاد»[(٢)].

ويتضح من كلماته تأثره برسائل النور، كذلك امتدت إشعاعاتها إلى

---

(١) المصدر السابق (ص:٣٢٢).
(٢) المصدر السابق (ص:١٩٦).

نابغة العصر للإمام النورسي الحكيم التركي الأستاذ محمد فتح الله كولن[١].

ومن دوافع الإمام لكتابة تلك الرسائل شعوره بأن الإيمان في ظل حكم أتاتورك في خطر فنذر نفسه للقرآن بعد أن نمى إلى علمه أن جلادستون رئيس وزراء الإنجليز قال بعد أن رفع نسخة من المصحف الشريف: «مادام هذا القرآن موجودًا في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان»[٢].

* * * *

(١) المصدر السابق (ص:٦١).
(٢) المصدر السابق (ص:٥٧).

٢- الإمام عبد الحميد بن باديس

التعريف بالإمام عبد الحميد بن باديس:

ولد الإمام ابن باديس في ديسمبر ١٨٨٩ وتلقى تعليمه أولًا بحفظ القرآن الكريم فأتمه وهو في السنة الثالثة عشرة من عمره[1]، وأخذ مبادئ العربية ومبادئ الإسلام عن الشيخ حمدان لونيسي، ثم تلقى الدراسة الابتدائية بمدينة قسنطينة والثانوية بجامع الزيتونة حيث درس من عام ١٩٠٨ إلى عام ١٩١٢، وتوفي رحمه الله تعالى سنة ١٩٤٠م.

وخاض الإمام في مجالات مختلفة تعليمية وصحفية واجتماعية وسياسية محاولًا تحرير بلده من الاستعمار الفرنسي وإحياء الإسلام في نفوس الجزائريين بعد أن حاولت فرنسا نزع العقيدة الإسلامية من النفوس وسط حملة تغريب ضارية لم نجد لها في التاريخ مثيلًا!

---

(١) «ابن باديس حياته وآثاره» عمار الطالبي (١/ ٧٤).

ونجح ابن باديس بمنهجه الإصلاحي المستمد من الإسلام في إنقاذ بلاده وإعادة شخصيتها وكيانها فحق اعتبار ذلك بمثابة معجزة القرن العشرين(١).

وقد اتخذ هذا الإمام الكبير من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح دليلًا ومرشدًا في منهجه وأعماله كلها كما سيتضح لنا بعد قليل، وقد خلّف لنا رَحِمَهُ اللهُ تجارب عظيمة في الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي والسياسي.

آراء الإمام عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الإصلاح:

منهجه:

من الممكن أن نلخص المنهج الذي اتبعه الإمام عبد الحميد بن باديس بالكلمة الموجزة التي ألقاها بجمعية التربية والتعليم عام ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م بقوله: «لم لا نثق بنفوسنا، وقد أعطانا الله عقولًا ندرك بها؟ وقد أعطانا من هذا الدين الإنساني، ومن هذا

(١) «الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية» د/ محمود قاسم «الإمام عبد الحميد ابن باديس» (ص: ١٤) ط. دار المعارف بمصر ١٩٦٨.

الدين العقلي والروحي ما يكمل عقولنا ويهذب أرواحنا، أعطانا منه ما لم يعط لغيرنا، لنكون قادة وسادة وأعطانا وطنًا شاسعًا مثل ما لغيرنا، فنحن إذن شعب عظيم يعتز بدينه، ويعتز بلغته، يعتز بوطنه، يستطيع أن يكون في الرقي واحدًا من هذه الشعوب...»[1].

كان معتزًا بالإسلام لأنه لا سبيل إلى الناس في دنياهم وأخراهم ومغفرة خالقهم ورضوانه إلا بالعمل بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، ويفسر الإمام هذه الآية بان الله خلق محمدًا ﷺ أكمل الناس وجعله قدوتهم وفرض عليهم اتباعه والاقتداء به، وقد بين سبيله بثلاثة أشياء «الدعوة إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله وما

---

(١) قام الأستاذ الدكتور محمود قاسم -رحمه الله تعالى- بدراسة شاملة لسيرة هذا الإمام الجليل، ومنهجه في الإصلاح، وفكره السياسي، وفلسفته، مع دراسة مقارنة بينه وبين الماتريدي وابن رشد في فكرة السببية، ونشر بعض النصوص من تفسير الإمام للقرآن الكريم. ينظر: كتاب «الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية» ط. دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨ للدكتور محمود قاسم.

أنا من المشركين»[١].

وفي عبارة موجزة يعبر لنا عن مفهوم الدين عنده، فالدين كله «عقيدة بالقلب ونطق باللسان وعمل بالجوارح الظاهرة والباطنة»[٢].

إنه يتمسك بالقرآن للإصلاح في كافة المجالات، ومنها الأخلاق فقد بيّن لنا مكارم الأخلاق ونفعها ومساوئ الأخلاق وضررها، ولكن المسلمين لم يستمسكوا بهذا الأصل وانصرفوا إلى مناهج أخرى، فمنهم من اندفع إلى التصوف الأعجمي واعتبروا إياه عنوانًا على السلوك القويم، بينما الحقيقة أنه مختلط بتراث أمم وثنية، أي أن المسلمين انصرفوا عن الأخلاق التي بينها القرآن والتي لا تدانيها أخلاق أي دين آخر أو أي مذهب فلسفي، ووضعوا أوضاعًا من عند أنفسهم واصطلاحات مخترعة ابتعدوا بها عن الحقيقة السمحة، وأدخلوا من النسك الأعجمي ما هو بعيد كل البعد عن روح

---

(١) «تفسير ابن باديس» (١/١٧٤).
(٢) «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية» ابن باديس (ص:٥٣) مكتبة الشركة الجزائرية، رواية وتعليق محمد الصالح رمضان ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

الإسلام، بل معارضة القرآن به[١].

فمن خطأ الصوفية في منهجهم الإلتجاء إلى مصادر ثقافية ودينية أجنبية والإستناد إلى قواعد أخلاقية غريبة عن الإسلام، كما أخطأ المتكلمون أيضًا عندما لم يستمدوا العقائد من القرآن وهي سهلة قريبة في متناول عامة المسلمين، فكأنما هجروا القرآن إلى عباراتهم الاصطلاحية الصعبة «وقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه»[٢].

إنه يؤمن بأن الحقيقة القرآنية متكاملة «تشمل الحياة الأخلاقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، أو ما يعبر عنه بالدين والدولة أو الدنيا، وليس الإسلام كالمسيحية التي اهتمت اهتمامًا بالغًا بالإصلاح الروحي، وأهملت النظام الاجتماعي، وهو ما أراد بعض الناس أن يطبقه على الإسلام أيضًا»[٣].

---

(١) «الإمام عبد الحميد بن باديس» د/ محمود قاسم (ص: ٥٤).
(٢) «تفسير ابن باديس» (١/ ٢٧٢).
(٣) «مقدمة التفسير» عمار الطالبي (١/ ١٠٠).

كما اعترض الإمام ابن باديس على طريق المسلمين في تلقي القرآن وحفظه دون تطبيقه، فإن هذه الطريقة مخالفة لطريقة السلف حيث استخدموا عقولهم لفهمه، واستعملوا هممهم العالية لنشره وتعميمه «فإن القرآن لا يأتي بمعجزاته، ولا يؤتى آثاره في الإصلاح للنفوس إلا إذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف، وتولته بالتطبيق العملي نفوس سامية وهمم عالية، كنفوسهم وهممهم»[1].

هكذا فهم إمامنا رسالة القرآن، وكان هذا الفهم حجر الزاوية في منهجه الإصلاحي، لتخليص عقائد المسلمين من الشوائب، وأخلاقهم من تأثيرات التصوف، والأخذ بيدهم في الارتقاء والتقدم، ويعتبر أن الشرع كله متوجه إلى إصلاح النفوس، فصلاح الإنسان وفساده يقاس بصلاح نفسه وفسادها مستشهدًا بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩-١٠]، فعارض بذلك المدرسة الاجتماعية التي تضع في المقدمة تغير المؤسسات الاجتماعية، وتفترض أن الإنسان صار إلى ما صار إليه نتيجة

(١) «الإمام ابن باديس» د/ محمود قاسم «النص الأول من تفسير الإمام» (ص: ١٢٠).

عوامل مختلفة. وهو مع مناداته بالإصلاح في ميادين الاقتصاد والاجتماع أيضًا؛ إلا أنه يرى أنه ينبغي البدء بالإنسان، ولهذا فإن العامل الأخلاقي هو الأساس في كل إصلاح عند ابن باديس بينما تجعله المدرسة الأخرى متأخرًا عن المسائل المادية، ومن المهم أن ندرك -كما فعل الدكتور عمار الطالبي في دراسته لمنهج الإمام الجزائري- أن كون النفس هي أساس الإصلاح ليس معناه التأمل الباطني والإنقطاع عن الحياة، فإن هذا التصور كان بعيدًا تمامًا عن الفكر الباديسي؛ لأن ميزته العقلية «أنه يجمع بين الفكر والعمل، بين النظر والتطبيق، وهي ميزة النفوس القوية، وطبيعة المفكرين المؤمنين»[(١)].

وكان معارضًا لمنهج الفلاسفة كابن سينا وأمثاله «الذين يحاولون تطبيق العبارة الإسلامية على الفلسفة اليونانية والآراء الأفلاطونية»[(٢)]، ويقارن بينهم وبين الفقيه المغربي ابن العربي مادحًا إياه، فيصفه بأنه حكيم إسلامي وفقيه قرآني وعالم سني، ويوضح منهجه بأنه لا يبني

---

(١) «مقدمة التفسير» د/ عمار الطالبي» (ص:١٠٢).
(٢) «تفسير ابن باديس» (١/ ٤٦٠).

أنظاره إلا على أصول الإسلام ودلائل الكتاب والسنة.

المفهومات الأخلاقية:

من الضروري أن نتعرف أولًا على معاني ألفاظ كثيرة يستخدمها الإمام ابن باديس مثل القلب، الروح، النفس، العقل، وسنحاول بيان المفهومات التي تناسب علم الأخلاق، وذلك تمهيدًا للحديث عن مذهبه في الأخلاق.

يبدو من سياق آرائه أنه جعل القلب أساس الحياة الأخلاقية، وقد ذكر القلب كثيرًا في القرآن الكريم؛ فإذا لجأنا إلى استطلاع حكيم أخلاقي سابق عليه وهو الراغب الأصفهاني لعثرنا على معنى القلب عنده فالمراد بالقلب «في كثير من الآيات: العقل والمعرفة»[(١)]، ومن هنا نفهم قول العالم الجزائري المسلم: «إن إطلاق لفظ الفؤاد والقلب على العقل مجاز مشهور»[(٢)]، اما القوى النفسية فهو في الغالب يقصد بها الانفعالات والهواجس؛ لأنه يقسم

---

(١) «تفسير القاسمي» (٢/٤١).

(٢) «تفسير ابن باديس» (١/٢٦٦).

النفوس البشرية إلى ثلاث أقسام، قسم يصدر عنه الضرر ويعمله، وقسم لا يريد الخير فيسعى في سلبه وانتزاعه، وهو شر من الأول، والقسم الثالث وهو الأعظم خطرًا لأنه «يوسوس بكلمة السوء مزينة الظاهر مغطاة القبح حتى تستنزل صاحبها إلى الهلاك»[١].

هذا إن كان القلب شريرًا خاليًا من دواعي العلم والإيمان، أما إذا كان محصنًا بالإيمان فيحنئذٍ يصبح مجلي العقول فلا يستطيع الوسواس له نقبًا[٢].

والنفس الكريمة هي التي كملت بمحاسن الأخلاق التي بها كمال النفوس[٣] ووسيلتها إلى ذلك التحلي بعقائد الإسلام في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر كله، وتذوق حلاوتها، فتتكون لها منها «إرادة قوية في الفعل والترك تملك بها زمامها، تلك الإرادة التي لا تكون إلا عن عقيدة راسخة»[٤].

---

(١) المصدر السابق (١/١٢١).
(٢) المصدر السابق (١/١٢٦).
(٣) المصدر السابق (١/٣٠١).
(٤) المصدر السابق (١/١٣٢-١٣٣).

إن للنفس إذن عند ابن باديس معنى أعم من القلب، ولكن نظرًا لأهمية القلب فإنه يعبر به عن النفس على طريق المجاز.

إن المكلف المخاطب من الإنسان هو نفسه، ويسري عليها ما يسري على البدن من صحة ومرض، فكما أن صحة البدن هو اعتدال مزاجه وقيام أعضائه بوظائفها، ومرضها هو تعطيل أعضائه وضعفها وعجز بعضها أو كلها عن القيام بوظائفها، فالأمر كذلك أيضًا بالنسبة للنفس من حيث اعتلالها ومرضها، وطريقة علاجها وتقويمها، فعلاج البدن بالدواء «وإصلاح النفس بمعالجتها بالتوبة الصادقة وإفساد البدن بتناول ما يحدث به الضرر، وإفساد النفس بمقارفة المعاصي والذنوب»[1].

واستنادًا إلى الآيات والأحاديث يقدم لنا الأدلة على صحة ما يذهب إليه، ففي قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾ [الشمس:٩-١٠]، دليل على أن رقي الإنسان وانحطاطه برقي نفسه وانحطاطها، والحديث: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت**

(١) «تفسير ابن باديس» (١/ ٢٣١).

صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

ويمضي معلقًا على هذا الحديث فيقول: «وليس المقصود من القلب مادته وصورته، وإنما المقصود النفس الإنسانية المرتبطة به، وللنفس ارتباط بالبدن كله ولكن القلب عضو رئيسي في البدن ومبعث دورته الدموية على قيامه بوظيفته تتوقف صلاحية البدن لارتباط النفس به فكان حقيقيًا لأن يعبر به عن النفس على طريق المجاز»(١).

والحياة الأخلاقية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالقلب بمعنى النفس، فإن الصلاح يتم بالعقائد الحقة والأخلاق الفاضلة -أي بصحة العلم وصحة الإرادة- وتبنى الأعمال على العقائد والأخلاق، ولذا فعلينا في رأيه أن نوجه الاهتمام الأعظم لتربية أنفسنا وتربية غيرنا ووسيلتنا «تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر»(٢).

وأشار الإمام إلى الغرائز دون تفصيل، ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء:٨٣]،

---

(١) «تفسير ابن باديس» (١/٢٣٢).
(٢) «تفسير ابن باديس» (١/٣٣٩).

يذكر أنه في النوع الإنساني غرائز غالبة عليه لا يسلم منها إلا من عصم الله أو وفق إلى الإيمان والعمل الصالح، ورأى أن في هذه الآية بيان الإعراض عن النعمة واليأس من الرحمة، «فليحذر المؤمن من هذين الوصفين الذميمين والعمل على اجتنابهما واجتثاثهما من أصلهما»[١]، وقد أوضح القرآن الكريم بيان لكثير من الغرائز للتحذير من شرها والتنبيه على سوء مغبتها، منها أيضًا محبة الإنسان نفسه، والناحية النافعة في هذه المحبة هو جلب للنفس حاجتها ودفع عنها ما يضرها والسعي في تكميلها، ولكنها من ناحية أخرى هي مدخل من أعظم مداخل الشيطان، يحسن للإنسان أعماله «وهو لمحبة نفسه يحب أعماله ويغتر بها فيذهب مع هواه في تلك الأعمال على غير هدى ولا بيان فيهلك هلاكًا بعيدًا، والوقاية من هذا الهلاك هو أن يوزن الإنسان أعماله بميزان الشرع لاسيما إذا ما اشتدت رغبته في أمر تدعوه إليه نفسه، فعليه أن يتهم إياها»[٢].

(١) «تفسير ابن باديس» (١/٣٣٧).
(٢) «تفسير ابن باديس» (٢/٤٥-٤٦).

وفي علاجه لموضوع الغرائز يضع العلاج لها، وينبه إلى إمكان السيطرة عليها بحيث تجلب النافع وتدفع الضار، ووسيلته إلى ذلك هو عقائد الإسلام التي تتكون منها إرادة قوية في الفعل والترك تملك بها زمام النفس[١].

إن الخلق إذن عند الإمام قابل للتعديل والتحسين حتى يصير ملكة نفسه، إذ يعرف الخُلق بأنه «الملكة النفسية التي تصدر عنها الأعمال»[٢].

ومصدره في بيان الأخلاق هو القرآن الذي جاء موضحًا الأخلاق الصحيحة وعظيم نفعها وحسن عاقبتها، ومبينًا الأخلاق الفاسدة وسوء أثرها وقبح مغبتها، فجاء مصححًا للعقائد مقومًا للأخلاق وبهما سلامة الأرواح وكمالها، إن فيه شفاء للفرد والجماعة بما شرع من أصول العدل وقواعد العمران ونظم التعامل وسياسة الناس، فبالإجمال تضمن شفاء العقائد والأخلاق -وهما أساس

---

(١) «تفسير ابن باديس» (١/١٣٣).
(٢) «تفسير ابن باديس» (١/١٢٧).

الأعمال- والمجتمع، هذه الثلاثة لا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجتها وبيان ما هو شفاء لها – ولا شفاء لها إلا بالقرآن – وبيان النبي ﷺ راجع إلى القرآن – ومن طلب شفاءها - أي أمراض العقول والنفوس- في غير القرآن فإنه لا يزيدها إلا مرضًا»، ويضرب على ذلك مثلًا بالأمم الغربية التي امتلأت بالجنايات والفضائح المنكرة بالرغم من سجونها ومشانقها ومحاكمها، بينما بعض الممالك الإسلامية التي داوت الأمراض بالقرآن قد استقرت فيها السكينة بلا سجون ولا مشانق.

التربية الأخلاقية:

قلنا في بداية هذا الحديث إن الإمام ابن باديس يرى أنه ينبغي البدء بالإنسان في منهجه الإصلاحي «والإصلاح هو إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من فساد»[1].

ومن هذه العبارة نفهم كيف سعى إلى بيان طريقته في التربية التي رأى أنه لابد فيها من الشرع، وأنها «لا تكون مجدية إلا على أساس

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٣١).

تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق»، يقول الأستاذ الدكتور قاسم: «ومن قبل حاول أوجست كونت مثل هذه النهضة لكنه فصل الأخلاق عن الدين، وحاول بعض أتباع مدرسته أن ينشيء الأخلاق على أساس من العلم لا من الدين فلم يفلح لقد ظنت المدرسة الفرنسية أن المجتمع هو الذي يفرض القيم الأخلاقية فرضًا، ورأى ابن باديس، ومثله جمال الدين الأفغاني أن الأخلاق هي التي تنبع من إعمال الضمير المتدين لا من قهر المجتمع؛ لأن صوت الضمير أقوى من مئات القوانين»[1].

وفي تفسير ابن باديس لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦]، يعني أن الإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد للمسلمين، فليبدؤا من الإيمان بتطهير عقائدهم من الشرك وأخلاقهم من الفساد وأعمالهم من المخالفات «فبدوام السعي واستمراره يأتي ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله، وليكن دليلنا في ذلك

---

(١) «الإمام عبد الحميد بن باديس» د/ محمود قاسم (ص:٥١).

وإمامنا كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ وسيرة صالح سلفنا»[١].

والدين كله عمل صالح وتوحيد خالص[٢].

هذا هو الدليل الصحيح الذي يسعى الاسترشاد به في التربية والإصلاح والنهوض بالأمة الإسلامية، وليست المدنية الغربية المادية في نهجها وغايتها ونتائجها إذ تجعل القوة فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان، وكانت سبيلًا في ضلال العقائد، وفساد الأخلاق، وتعذيب الإنسانية بالأزمات الخانقة والحروب المخزية «هذه هي بلايا الإنسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التي عمّرت الأرض وأفسدت الإنسان»[٣].

وندرك من موقفه من الحضارة الغربية فهمه العميق لمقوماتها - ولا ننسى أن حديثه هذا قاله عام ١٩٣٥- أي في الظروف التي كانت تتهيأ فيها أوروبا للحرب العالمية الثانية ثم إنه عانى مع

---

(١) «التفسير» (١/ ٣٠٠).
(٢) المصدر السابق (٣٦٥).
(٣) المصدر السابق (١/ ٣٥٦).

مسلمي الجزائر من آثار هذه الحضارة بسبب الاستعمار الفرنسي للجزائر لقد أفسدت هذه الحضارة الإنسان فلابد من البدء بالإنسان وإصلاحه على أساس من الدين ودليله هو القرآن العظيم «ففيه بيان العقائد وأدلتها ورد الشبه عنها وفيه بيان الأخلاق، محاسنها ومساوئها، وطرق الوصول إلى التحلي بالأولى والتخلي عن الثانية ومعالجتها، وفيه أصول الأحكام وعللها»[١].

أما عن وسيلة الإنتفاع به، لكي تتهذب به الأخلاق وتتزكى به النفوس وتتأدب بجميع آدابه فهو الانكباب عليه وتفهمه وتدبره كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩][٢].

ويتم تقويم الأخلاق بالسلوك النبوي، والتأسي بمحمد ﷺ الذي كان خلقه القرآن «فكان تذكيره بآيات القرآن: يتلوها ويبينها بالبيان القولي والبيان العملي متمثلًا في ذلك كله أمر ربه تعالى بقوله:

---

(١) المصدر السابق (ص:٤٢٩).
(٢) المصدر السابق (ص:٤٩٠).

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥][1].

إن الغاية التي يسعى إليها كل عاقل هو السعادة الحقة، وقد شرعت التكاليف الإسلامية لسوق الإنسان إليها، ويرى أن إعجاب المرء بنفسه سبب اقتراف كل شر والابتعاد عن كل خير، ودليله على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء:٣٧]، ويسمي هذه الآية آية الأخلاق، حيث سيتبين لنا سبب هذه التسمية.

فالعُجب هو أصل الهلاك لأنه سبب الكبر، والكبر يؤدي إلى احتقار الناس فلا يعتقد المتكبر لهم حرمة ولا يراقب فيهم إلًّا ولا ذمة، ويصبح من أظلم الظالمين «وإبليس اللعين -نعوذ بالله تعالى منه- كان أصل هلاكه من عجبه بنفسه، وأنه خلق من نار، وأنه خير من آدم، فتكبر عليه فكان من الظالمين الهالكين»[2].

ولذا فإن ترك العجب شرط في حسن وكمال الأخلاق، لأنه

---

(١) المصدر السابق (ص:١٢٧).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٧٧).

أساس الرذائل والمانع من اكتساب الفضائل، لأن المرء إن لم يكن معجبًا بنفسه، فإن تلك الجبلة تدعوه إلى التخلق بمحاسن الأخلاق والتنزه عن نقائصها «وإذا رغب في الكمال كانت داعية فلا يزال بين التذكيرات الإلهية، والجبلة الإنسانية الخلقية يتهذب ويتشذب حتى يبلغ ما قدر له من كمال، ولهذه المعاني التي تتصل بتفسير هذه الآية الكريمة -وهي أصول في علم الأخلاق- عنون عليها بآية الأخلاق»[1].

ثم يرى في الآية التي تعقبها تأكيد الأوامر والنواهي المتقدمة بطريق الإيجاز في قول الله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء:٣٨]؛ فالقبائح المنهي عنها فيما تقدمها من آيات قبيحة لذاتها ولنهي الله تعالى عنها، إذ أنها مبغوضة له تعالى ويعاقب عليها ويسخط على مرتكبها، فنفهم من ذلك أوامر الشرع ونواهيه على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة، فإن الله سبحانه لا يأمر إلا بحسن ولا ينهى إلا عن قبيح، وفي ذلك ما يحملنا على الامتثال والترغيب في الحسن؛ لأن النفس تميل إليه وتنفر من القبيح.

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٧٧).

وفي قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ غاية الترغيب في الحسن والتنفير من القبيح فإن الحسن جد الحسن ما كان حسنًا عند الله تعالى، والقبيح جد القبيح ما كان قبيحًا عنده»[١].

وتربية النفس تقتضي التوبة وترك المعاصي ثم العمل الصالح، إذ استثنى الله تعالى التائبين من الذنبين في قوله ﷻ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٧٠].

ووجوه التبديل في هذه الآية أن السيئات الماضية محقت بالتوبة وأن التائب صار يعمل الصالحات بدلًا من السيئات، كما أن نفس التائب بعد أن كانت مظلمة شريرة بالمعصية، أصبحت منيرة خيرة بالتوبة والعمل الصالح، فالتبديل إذن قد تم في الكتب والعمل وحالة النفس»[٢].

وقد جاء الإسلام بالوسائل التي تهذب النفس وتربيها تربية

(١) المصدر السابق (١/٢٧٩).
(٢) المصدر السابق (١/٤٧٨).

فاضلة، منها الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر وتربي النفس على استصغار الدنيا وما فيها[1]، والصبر من الأمور الضرورية للتهذيب والتربية، لأن الإنسان لا ينهض بامتثال المأمورات وترك المنهيات إلا به فالصبر «خلق من الأخلاق التي تربي وتنمو بالمران والدوام فواجب على المكلف أن يجعل تربية نفسه عليه وتعويدها به من أكبر همه»[2].

وباختصار فقد أوضح القرآن أصول الطاعات وأمهات المعاصي «وقدم إثبات الطاعات على انتفاء المعاصي تنبيهًا على أن من راضي نفسه على الطاعة ودانت نفسه والانقياد لأوامر الشريعة ضعفت منه أو زالت دواعي الشر والفساد فانكف عن المعصية»[3].

وهو يقصد تقديم إثبات الطاعات بالآيات القرآنية التي تصف عباد الرحمن في «سورة الفرقان» وتبدأ بقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ

---

(١) المصدر السابق (١/٤٦٤).
(٢) المصدر السابق (١/٥٠٠).
(٣) المصدر السابق (١/٢٧٩).

ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣]، حيث توضح هذه الآية وما بعدها صفات عباد الرحمن وأخلاقهم وآدابهم في صلاتهم وعلاقاتهم بخلقه، ثم نفت عنهم الآيات القرآنية في ختام وصف الكمّل من عباد الله أمهات المعاصي في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان:٦٨].

ويستخلص إمامنا من النظر في هذه الآيات وتفسيرها أن على المسلم الذي يجتهد لتزكية نفسه «أن يواظب على الطاعات بأنواعها وأن يجتهد في حصول الأنس بها والخشوع فيها، فإن ذلك زيادة على ما يثبت فيه من أصول الخير يقلع منه أصول الشر ويميت منه بواعثه»[١].

إن تربية النفس وتهذيبها إذن تنبني على عاملين: أحدهما المواظبة على الطاعة لتدعيم أصول الخير وتدعيمها، والثاني اجتثاث أصول الشر وإماتة بواعثه ومقدماته، وهذا ما تفعله العبادات، فالمؤمن يطلب

---

(١) المصدر السابق (١/ ٤٦٩).

أسمى الغايات تنفيذًا لأمره تعالى ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ ومعناها طلب الرتب العليا في الخير والكمال والسبق إليها، ومن لم يطلب الكمال بقي في النقص، بينما طلب الكمال كمال لأن الساعي إليه «حتى إذا لم يصل لم يبعد وحتى يكون في مظنة الوصول بصحة القصد وصدق النية»[١].

ويرى أن هذا الكمال الإنساني يتوقف على قوة العلم وقوة الإرادة وقوة العمل «فهي أسس الخلق الكريم والسلوك الحميد اللذين ينهض بهما بجلائل الأعمال ويبلغ بهما أسمى غايات الشرف والكمال»[٢].

إن قوة العلم وقوة العمل من الأسباب التي ينبغي الأخذ بها نحن معشر المسلمين كما يذكر الإمام ابن باديس: «لنكون أهلًا للدفاع عن الحق وحزبه، ومقيمين لسلطان الله في أرضه بالحق والعدل والإحسان، معتمدين مع تحصيل تلك الأسباب على الله وحده ومنتظرين منه الفرج والتيسير»، وهنا يتضح لنا إيمان هذا العالم المسلم الكبير بحرية إرادة الإنسان ومحاربته لدعوى الجبر

---

(١) المصدر السابق (١/ ٤٩٥).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٠٩).

والتواكل التي سادت في عصره على لسان الصوفية.

وكان إمامنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ معبرًا عن التقاء الفكر بالعمل في سلوكه وأخلاقه، وها هو يعلن في الكلمة التي ألقاها بمناسبة ختم القرآن: «أنا زراع محبة، ولكن على أساس من العدل والإنصاف والاحترام مع كل أحد من أي جنس كان ومن أي دين كان»[١].

لم يخلق الإنسان للأرض:

يقول الإمام ابن باديس: «لم يخلق الإنسان للأرض وإن خلق منها، وإنما خلق للسماء وللملأ الأعلى»[٢]، فماذا يعني بهذه العبارة، وما مغزاها في مجال الحياة الأخلاقية للإنسان؟

إذا تأملنا نظريته المستخرجة من القرآن الكريم عن الإنسان منذ بدء الخلق فإننا نستطيع أن ندرك ما تنطوي عليه هذه العبارة من مغزى أخلاقي، إذ أنه ينبغي على الإنسان أن يسعى لطلب السعادة التامة في الآخرة، وأن يجعل الغاية النهائية لحياته هي اختيار الباقية

---

(١) المصدر السابق (٢/ ١٤٤) وكان الاحتفال يوم ١٣ ربيع الثاني ١٣٥٧- هـ ١٩٣٨م.
(٢) المصدر السابق (٢/ ١٧٧).

على الفانية، فالدنيا طريق الاختبار والابتلاء «لينال الإنسان ما يستحقه على حسن تصرفه أو سوء تصرفه من عادل الجزاء، بعد خروجه من دار الفناء إلى دار البقاء»[١].

وخلق الإنسان من روح وبدن يقتضي أن يبقى على بدنه بالغذاء وأمر الله أن يكون المأكل من الطيبات لتغذيه ولا تؤذيه بخلاف الخبائث التي يكثر فيها الأذى ويقل بها الغذاء، وأمر أيضًا بالعمل الصالح الذي تزكو بها نفسه، وليس من الإسلام تحريم الطيبات التي أباح أكلها كما يفعل غلاة الصوفية، وقد نهى الإسلام أيضًا عن تعذيب البدن كما يفعل صوفية الهنادك ومن قلدهم من المنتسبين للإسلام، فالغذاء الطيب له أثره على القلب والبدن فتصلح الأعمال «كما أن الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن فتفسد الأعمال»[٢].

وإذا كان الأمر كذلك، فالحياة حياتان -حياة الروح وحياة البدن- وحريتهما هما أصل حياة البدن وحريته، وإذا شرع الله الصوم لتحصيل

(١) المصدر السابق (٢/١٧٧).
(٢) المصدر السابق (١/٣٦٥).

حرية الروح ليترك المؤمن طعامه وشرابه وشهوات بدنه لتحرير روحه من سلطة المادة والشهوة ويرتفع بها إلى عالم علوي من الطهر والكمال[1].

لقد كرم الله سبحانه النوع الإنساني بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠].

والأرواح الإنسانية كريمة الجوهر لأنها من عالم النور؛ لأن نفخ الروح يتم بواسطة الملك، والملائكة -خلقوا من النور- وقد ورد الحديث الصحيح «**أن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح... إلخ**»، إن الروح كريمة الخلقة أيضًا لأنها فطرت على الكمال إذ أضافها الله تعالى إليه في قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة:٩]، وإذا ما اتصلت بالجسد فقد ترقى بالتزكية فترتفع إلى معارج الكمال، أو تنحط إلى

(١) المصدر السابق (٣/٤٨١).

أسفل سافلين «وبعد ارتباطها بالبدن يتكون منهما المخلوق العظيم العجيب المسمى بالإنسان، الذي جعله الله تعالى خليفة في الأرض ليعمرها ويستثمرها»[(١)].

ويعيش الإنسان في الدار الدنيا الموضوعة على المحنة والابتلاء فينهض بامتثال المأمورات وترك المنهيات، وحياته من البداية إلى النهاية مبنية على الإرادة والفكر والعمل، وهي المذكورة في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢]، فيستخرج الإمام ابن باديس من هذه الآية بأن الإنسان يستفيد مما خلقه الله له وجعله لأجله، والتذكر يتم بالتفكر والشكر يتم بالعمل، ولكن هذه الأركان تعتمد على ثلاثة أخرى هي البدن اللازم للعمل، والعقل للتفكر، والإرادة التي تتوقف على الخلق فالتفكير الصحيح يرتبط بالعقل الصحيح، والإرادة القوية ناجمة عن الخلق المتين، والعمل المفيد يؤدّيه البدن السليم «فلهذا كان الإنسان مأمورًا بالمحافظة على هذه الثلاثة عقله وخلقه وبدنه، ودفع المضار

---

(١) المصدر السابق (١/٢٥٢).

عنها، فيثقف عقله بالعلم ويقوّم أخلاقه بالسلوك النبوي، ويقوّي بدنه بتنظيم الغذاء وتوقي الأذى والتريض على العمل»[١].

وفي تفسير إحدى الآيات القرآنية، يصور لنا الإمام حركة المسلم في حياته، فإن كل فرد من أفراد بني الإنسان لا ينفك في كل ساعة بل كل لحظة من لحظات عمره عن المداخل باعتبار دخوله فيها مما قبلها، ومخرج لخروجه منها إلى غيرها، فعليه إذن أن يقضيها صادق العقيدة صادق القول، صادق السلوك فتصبح بذلك مدخل صدق ومخرج صدق، والعكس إذا قضاها بسوء في النية والقول والعمل فهي مدخل كذب وفجور ومخرج كذب وفجور، فالإنسان محتاج في كل لحظة من حياته لتوفيق الله وتأييده وحفظه وإمداده فجاء هذا الدعاء القرآني منبهًا على هذه العقيدة»، قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠].

فالسلوك الأمثل هو أنه على الإنسان ألا يدخل في أمر أو يخرج

---

(١) «التفسير» (١/ ٤٣٤).

منه إلا على بصيرة به وبحث ومعرفة لحكم الله تعالى فيه، دون تفرقة بين أمر وآخر، أو كبير وصغير، أو جليل وحقير، مع الأخذ بالأسباب[1].

وأخذًا بالحديث النبوي، يصف الإمام ابن باديس الناس في الحياة الدنيا بصفتين حارث وهمام، أي عامل ومريد، وبالنظر في الآيات القرآنية التي تتناول من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة، يقسم حكيمنا العباد -من حيث المآل في الآخرة والسعي في الدنيا، والحصول على الثواب أو الاستحقاق للعقاب إلى أربعة أقسام:

١- مؤمن آخذ بالأسباب الدنيوية، فهذا سعيد في الدنيا والآخرة.

٢- ودهري تارك لها، فهذا شقي فيهما.

٣- ومؤمن تارك للأسباب فهذا شقي في الدنيا وينجو - بعد المؤاخذة على الترك - في الآخرة.

٤- ودهري آخذ بالأسباب الدنيوية، وهذا سعيد في الدنيا

---

(١) المصدر السابق (١/٣٢٣).

ويكون في الآخرة من الهالكين[١].

إن الإنسان إذن في موقف الاختيار بين طلب الدنيا وطلب الآخرة، قال تعالى ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:١٨]، فمن يريد الدار العاجلة وقصر همه عليها دون النظر إلى ثواب أو عقاب بعدها، ولا يتقيد في سلوكه بشرائع العدل والإحسان، فإنه يصبح مطرودًا من الرحمة في الآخرة ومصيره إلى النار[٢].

والقسم الثاني من الخلق قصد بعمله الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩]، والآية توضح شروط قبول عمله للآخرة وهو أن يقصد بعمله ثواب الآخرة قصدًا مخلصًا، ويمتثل الأوامر ربه ونواهيه، كما ينبغي أن يكون مؤمنًا موقنًا بثواب الله تعالى وعظيم جزائه «وإذا اختل واحد منهما فليس العمل بمتقبل ولا

(١) المصدر السابق (١/ ٢٠٢).
(٢) المصدر السابق (١/ ٢٠٠).

بمثاب عليه بضرورة انعدام المشروط بانعدام شرطه»[١].

وإذا أمعنا النظر في تقسيم الإمام للعباد من حيث طلب الدنيا وطلب الآخرة لرأينا أن الإمام يجعل الأخذ بالأسباب هي الأساس سواء في العمل ابتغاء السعادة في الدنيا أو لطلبها في دار البقاء والخلود، إن هذه النزعة واضحة في كتاباته كلها، فهو يثبت للإنسان حرية الاختيار ويشيد بالعقل الإنساني الذي يمتاز بقوة التحليل والتركيب والتطبيق فتغلّب بذلك على عناصر الطبيعة واستعمل الحيوان والجماد في مصلحته، والتمييز بين الخير والشر[٢]، وقد وضع الدين للإنسان قوانين ثابتة للخير والشر موضحًا أن الخير ما نفع وأن الشر ما ضر[٣].

ولكنه وإن أوتي قوة التمييز لم يؤت قوة الاستعصام امتحانًا وابتلاء من الله، واستمد نظرية الامتحان والاختبار من معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ

(١) المصدر السابق (١/٢٠٣).
(٢) المصدر السابق (٢/٢٢).
(٣) المصدر السابق (٢/١١٢).

بَصِيرًا ﴾ [الفرقان:٢٠]، فالفتنة في هذه الآية تعني الابتلاء والامتحان والاختبار، فجعل الله الرسل بشرًا يأكلون ويكتسبون لامتحان العباد في الاقتداء بالرسل من حيث الصبر على الجهد والبلاء وجعل الغني امتحانًا للفقير والفقير امتحانًا للغني، والصحيح فتنة للمريض، والمريض فتنة للصحيح، وهكذا في كل أحوال البشر فإن الله تعالى مطّلع على ما يكون من عباده عند الامتحان ليجازيهم عليه، وإذا تساءلنا عن الحكمة من الامتحان مع سبق علم الله سبحانه بما يكون عليه العباد، فإن إجابة الإمام صريحة في إثبات الفعل للإنسان لأنه متمكن من الفعل والترك وله القدرة على الاختيار، ولهذا يمتحن الله العباد «لتظهر حقائقهم ويقع جزاؤهم على ما كسبت أيديهم باختيارهم، ولا حجة لهم في تقدم علمه تعالى بما يكون منهم؛ لأن تقدم العلم لم يكن ملجئًا لهم على أعمالهم، ففي هذا الامتحان قيام حجة الله على العاملين أمام الناس أنفسهم وأمام الناس، كما فيه إظهار لحقيقتهم لأنفسهم ولغيرهم»[١].

---

(١) «تفسير ابن باديس» (١/٣٩٨).

معالم الحركة السلفية بالجزائر بقيادة الإمام عبد الحميد بن باديس:

كيف نفسّر ظاهرة انبثاق الحركة الإصلاحية بالجزائر بشمولها لميادين الاجتماع والسياسة والاقتصاد من مجتمع إسلامي حاول الاستعمار الفرنسي جهده السيطرة عليه؟

والحق أن الجزائر أصابها ما أصاب البلاد الإسلامية في العصر الحديث من سيطرة استعمارية بواسطة دول الغرب ولكن ربما كان نصيبها من هذه السيطرة أقوى وأعتى لأن فرنسا كانت تحاول جعل أرض الجزائر جزءًا من فرنسا وفي سبيل ذلك حاولت طمس معالم العروبة والإسلام في المجتمع الجزائري.

ولكن المسلمين بالجزائر لاذوا بالإمام عبد الحميد بن باديس، فقد كان كفيلًا بالمحافظة على معالم المجتمع الإسلامي بالجزائر، وليس مرد ذلك إلا لمتابعته للمنهج السلفي الذي استطاع به أن يبقي على جذوة الحياة الإسلامية مشتعلة تحت الرماد فأحياها من جديد بعد أن ظن الجميع أنها في سبيل الزوال، وأعاد بمنهجه الأمة الجزائرية إلى الركب مع الأمة الإسلامية الكبرى، فلم يتملكه اليأس بتأثير النظرة السطحية

لتدهور المسلمين في عصره، وخضوعهم للدول الأخرى، ولكنه رأى بثاقب نظره أن العلاج الحاسم هو التمسك بقواعد الإسلام -لا التي تظهر على السطح في المجتمعات الإسلامية الغارقة في البدع وأنواع الجهل- وإنما هي «في القرآن والسنة الثابتة الصحيحة وعمل السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين»[١].

ووضع الإمام ابن باديس الأساس الأيدلوجي للإصلاح لكي يبعث الأمة الجزائرية من جديد بعد أن ألقى جانبًا بكافة النظريات السائدة في عصره، وأعلن أن «الاتحاد الإسلامي والوحدة العربية بالمعنى الروحي والأدبي والمعنى الأخوي هما موجودان تزول الجبال ولا يزولان»[٢].

وهكذا انقشعت سحب الاحتلال والثقافة الأجنبية وسطعت شمس الإسلام بنورها الذي بدأ في أول مرة كبارقة أمل في حزب

---

(١) «ابن باديس... حياته وآثاره» (١٦٣/٣) ينظر أيضًا: «(ص:٢١٨، ٢١٩) للدكتور عمار الطلبي.

(٢) ماسينيون «وجهة الإسلام» (ص:٦٠).

«السلفيين المتشددين»، ويصفه ماسينيون بانه بالرغم من انتماء القلة إلى هذا الحزب «فقد صار له بعض التأثير بسب برنامجه المنطوي على الرجوع إلى تعاليم القرآن التي لم يتطرق إليها الفساد»[١]، فنقول: إن بدأ هذا الحزب بارقة أمل ثم أخذ يسطع رويدًا رويدًا حتى ارتفع إلى كبد السماء كالشمس فأحيا الأمة الجزائرية، وأعاد إليها شخصيتها الإسلامية وكيانها الأصيل.

إننا نقدم هذا النموذج للتدليل على حيوية المنهج السلفي لأنه ظل يحافظ دومًا على تعاليم الكتاب والسنة ويلفظ ما عداها.

ولو عدنا إلى الظروف والأحوال التي عاش فيها هذا الإمام فلربما دفعت بنا إلى اليأس فقد كان يرى من مظاهر انحطاط الخلق وفساد العقائد «حتى خارت النفوس القوية وفترت العزائم الفذة وماتت الهمم الوثابة، ودفنت الآلام في صدور الرجال، واستولى القنوط القاتل واليأس المميت»[٢].

---

(١) ماسينيون «وجهة الإسلام» (ص:٦٠).
(٢) «ابن باديس... حياته وآثاره» (٣/٢٤).

ولكن ابن باديس لم ييأس وأخذ يبحث عن كيفية إيقاظ هذه الهمم الخائرة وإحياء الآمال من جديد، ولعل التاريخ هنا يعيد نفسه، فلو تذكرنا مرة اخرى موقف ابن تيمية من حروب التتار فإننا ندرك بسهولة تأثير المنهج السلفي في كلا الشيخين، كانت الآثار التي خلّفها الغزو التتاري لا تقل خطورة عن محاولات طمس معالم الأمة الإسلامية في الجزائر وتحويلها إلى ذيل تابع لفرنسا، وكما نفث الشيخ السلفي في القرن الثامن الهجري من روح إيمانه العزيمة في أمة كانت على مشارف اليأس مسندة ظهرها إلى حائط الاستسلام والهزيمة، ارتفع صوت ابن باديس في القرن الرابع عشر الهجري معلنًا أن الإسلام وما بيّناه منه من الأحكام بالكتاب والسنة وهدي السلف الصالح من الأمة مع الرحمة والإحسان»[1].

إن هذه القرون الطويلة التي تفصل بينهما لم تغير من حكمها على الأحداث واتخاذ مواقف واحدة لأنهما يستندان إلى نفس المنهج، وسنرى بعد قليل أنهما تشابها في آرائهما من التصوف والصوفية، كذلك فإن اتفاق آراء كل من الإمام ابن باديس مع الشيخ محمد عبده وتلميذه

(١) المصدر السابق (٣/١٣٣).

السيد رشيد رضا بالرغم من اختلاف البلاد التي نشأوا فيها لا يرجع إلى تعاصرهم بقدر ما يتصل بارتباطهم بهذا المنهج السلفي.

ويرى الدكتور محمود قاسم أن ابن باديس لم يكن مصلحًا فحسب «بل كان مجاهدًا سياسيًا بالمعنى الدقيق لهذا الكلمة، فقد وضع للأمة الجزائرية دستور المستقبل عندما برهن لها على عدم مشروعية الحكم الفرنسي في الجزائر معتمدًا في ذلك على استنباطه من خطبة الخليفة الأول أبي بكر الصديق»[1].

وفي بحثه للجانب السياسي من تفكير الإمام الجزائري، ارجع مهادنته للسلطة الفرنسية إلى طبيعة الظروف المحيطة بالجزائر وقوة سيطرة فرنسا حينئذٍ، إذ كان الإمام حكيمًا في الالتفاف حولها ثم اخذ ينشر دعوته السلفية حتى ضيق على فرنسا الخناق، وكان أثناء ذلك يتبع من الأساليب الحكيمة التي تخفي اغراضه الحقيقية ما جعل ماسينيون -وهو المستشرق الذي يعد بمثابة العين الحارسة للاستعمار الفرنسي-

(١) د/ محمود قاسم «الإمام عبد الحميد بن باديس» (ص: ٦٥).

لا يفطن إلى الهدف من دعوة ابن باديس إلا بعد فوات الأوان[١]، ومع هذا فإن ماسينيون لم يسعه إخفاء انزعاجه من جماعة السلفيين بما تغرسه في النفوس من بذور الثورة على السلطة الأجنبية[٢].

وقد ضحت الجزائر بمليون شهيد «وكان السر في هذه التضحية والثبات -الذي لا يوجد له نظير في العصر الحديث- حب الشهادة، والحنين إلى الجهاد، وكانت وكالات الأنباء الغربية تعبر عن الجزائريين بكلمة المسلمين فحسب»[٣].

والذي يعنينا في بحثنا هو الاتجاه السلفي للزعيم الجزائري، وموقفه من الصوفية وإن كان من الصعب الفصل بين نظريات الإمام، فالحق أن دعوته الرجوع إلى تعاليم الكتاب والسنة اقتضت

---

(١) د/ محمود قاسم «الإمام عبد الحميد بن باديس» (ص:٦٥).

(٢) ماسينيون «وجهة الإسلام» (ص:٦٠)، وهو يعد ابن باديس زعيم حزب السلفيين المتشددين ويرى أنه بالرغم من أن أتباعه قليلون إلا أنه له بعض التأثير بسبب برنامجه المنطوي على الرجوع إلى تعاليم القرآن التي لم يتطرق إليها الفساد كذلك ينبه إلى أن نار الدعوة للجهاد تندلع فجأة دون توقع ويقول هذا المعنى بصيغة التحذير والتنبيه. ينظر نفس المصدر (ص:٥٥).

(٣) أبو الحسن الندوي «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» (ص:١٦٢).

منه اتخاذ الموقف السياسي السالف الإشارة إليه، كما دفعته إلى منابذة أصحاب الطرق الصوفية وكانت فرقهم قد عمت أرجاء المغرب العربي، فقد سيطرت هذه الطرق على الفكر الإسلامي والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشرة سيطرة مذهلة»[١].

وسنحاول الكشف عن الأسباب التي حولت اتباع ابن باديس من شرذمة قليلة استطاعت أن تجتذب الغالبية العظمى من شعب الجزائر وتنجح بفضلها الثورة الجزائرية متغلبة على التيارين الآخرين السائدين في الجزائر حينئذٍ وأحدهما يتمثل في الحركة التي كانت غايتها فصل الدين عن الدولة اقتداء بكمال أتاتورك، والثانية تضم أتباع الطرق الصوفية[٢].

وإذا كان النجاح يرجع في الغالب إلى قوة الفكر والنظر وأصالته، فإننا سنتتبع الفكر السلفي لإمامنا ونرى أثره في نجاح دعوته.

---

(١) عمار الطالبي مقدمة كتاب «ابن باديس... حياته وآثاره» (١/١٨).
(٢) ماسينيون «وجهة الإسلام» (٦٠-٦١).

الاتجاه السلفي لابن باديس:

سلك الإمام ابن باديس مسالك السلف في إثبات الصفات الإلهية فهو يقول: «نثبت له تعالى ما أثبته لنفسه، على لسان رسوله ﷺ، من ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، وننتهي عند ذلك ولا نزيد عليه، وننزهه في ذلك عن مماثلة أو مشابهة شيء من مخلوقاته»[١].

وأعلن أن من أغراضه الدعوة العامة إلى الإسلام الخالص أي الاستناد إلى الكتاب والسنة وهدي سلف الأمة وطرح البدع والضلالات ومفاسد العادات[٢].

ولهذا كان يتعجب من الاتهامات التي توجه إليه بمجرد تشابه منهجه مع غيره من شيوخ المسلمين الذي يسلكون نفس هذا السبيل، فقد كانت أصابع الاتهام تشير إليه فتصفه أحيانًا بأنه «عبداوي» أي نسبة للشيخ محمد عبده، أو أنه «وهابي» نسبة إلى

---

(١) عبد الحميد بن باديس «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية (ص:٧٣).

(٢) «ابن باديس... حياته وآثاره» (٣/٢٨).

محمد بن عبد الوهاب ولكنه لم يلق بالًا إلى هذه الأصوات فهي نفسها التي ترتفع في وجه كل حركة إسلامية «ولنا أسوة بمواقف أمثالنا مع أمثالهم من الماضيين»[١].

ولم يفطن هؤلاء إلى أن تطبيقات المنهج السلفي لابد وأن تثمر نفس النتائج مهما تعددت أشخاص المتبعين له، والحق أن الإمام ابن باديس كان معجبًا بالشيخ محمد عبده فهو عنده «أول من نادى بالإصلاح الديني علمًا وعملًا»[٢]، ولم يخف أيضًا ميله إلى السيد رشيد رضا فيصفه بانه «حجة الإسلام.. أول من قام بخدمته بنشرة إسلامية عالمية»، وربما يشير بهذا إلى جهود الشيخ في مجلة «المنار».

ومع احتمال اتصال الإمام ابن باديس بالشيخ محمد عبده أثناء زيارة الثاني لمدينة القسنطينية عام ١٩٠٣[٣]، فإن هذا الاحتمال على

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق (ص:٦٦).

(٣) عمار الطالبي مقدمة كتاب «ابن باديس... حياته وآثاره» (١/٧٥)، وهو يرجع هذا الاحتمال إذا كان الإمام ابن باديس حينئذٍ يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا وكان يقوم بإمامة الناس في صلاة التراويح بمسجد القسطنطينية الذي زاره الشيخ

فرض صحته، لا يؤثر فيما قلناه آنفًا، وهو الاتفاق في الآراء لا يعني بالضرورة التقاء أصحابها، فإذا ما وجدنا تشابهًا في الدعوة الإصلاحية بواسطة كل من الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا بمصر والإمام عبد الحميد بن باديس بالجزائر، فليس مرده إلا الانتماء لمنهج واحد في النظر والتطبيق مثلما نلاحظ من تعاطف واتفاق بين أصحاب النظريات المتماثلة لاسيما وأنهم نشأوا جميعًا في عصر واحد، وواجهوا نفس المشكلات.

كذلك فإن ابن باديس كان يدافع عن ابن تيمية ويتخذ نفس موقفه من بعض المسائل، مثل موضوع التوسل، فقد ناقش معاصره الشيخ الدجوي أوضح المعنى المقصود بالتوسل، مستشهدًا بابن تيمية فيقول: «ولو تأمل الفصل الطويل الذي نقل بعضه من كلام الشيخ ابن تيمية لظهر له الفرق جليًا»[1].

محمد عبده.

(١) «ابن باديس... حياته وآثاره» (٣/٣٧).

ونلمح تأثره بابن تيمية في استخدامه لعبارات مماثلة لما نقرأه للشيخ السلفي مثل تعريفه للتوحيد العلمي والعملي، فالتوحيد كما يعرفه: «هو اعتقاد وحدانية الله وإفراده بالعبادة، والأول هو التوحيد العلمي، والثاني هو التوحيد العملي لا يكون المسلم مسلمًا إلا بهما»[(١)].

ويمضي مستندًا إلى نفس الآيات، وتظهر أصالة الإمام في لمحاته الذكية لملاحظته للمسلمين، أو بعبارة أخرى تفرقته بين الإسلام الوراثي الذي يأخذه المسلمون تقليدًا لآبائهم وجدودهم ويكنون له المحبة بحكم الشعور والوجدان، وبين ما يطلع عليه اسم «الإسلام الذاتي» وهو «إسلام من يفهم قواعد الإسلام ويدرك محاسن الإسلام في عقائده، وأخلاقه، وآدابه، وأحكامه، وأعماله، ويتفقّه حسب طاقته في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية»[(٢)].

وهو الإسلام المأمور به في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ:٤٦]، وقد

---

(١) «ابن باديس... العقائد الإسلامية» (ص:٨٠-٨١).

(٢) «ابن باديس... حياته وآثاره» (٣/٢٤١).

بنى ابن باديس هذه الفكرة على تجربة خاضها بنفسه، إذ يحدثنا عن اكتشافه للحقيقة التي أثارت دهشته حين رأى أن منهج التعليم الذي تلقاه كان بعيدًا تمامًا عن «التعليم الديني السني السلفي»[١]، ويقول: «فقد حصلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة ونحن لم ندرس آية واحدة في كتاب الله»[٢]، ويتعجب إمامنا من حالة علماء المسلمين في عصره فإن أغلبهم «أجانب أو كالأجانب من الكتاب والسنة»[٣].

ومن هنا أصبح العلاج في رأيه، هو ضرورة الإصلاح وفقًا للمنهج الصحيح، وهو ما يعبر عنه بالتعليم «النبوي في شكله وموضوعه في مادته وصورته»[٤].

واستطاع ابن باديس بدعوته الإصلاحية التي تشكل الحركة السلفية حجر الزاوية منها أن يخطو بالأمة الجزائرية نحو النهوض منقذًا إياها من أغلال السيطرة الأجنبية، التي جثمت على صدر

(١) المصدر السابق (٣/٢١٩).
(٢) المصدر السابق (٣/٢١٩).
(٣) المصدر السابق (٣/٢١٩).
(٤) المصدر السابق (٣/٢١٧).

الجزائر أكثر من قرن، يقول عمار الطالبي «والحقيقة أن الحركة الأساسية التي تمثل آمال الشعب الجزائري وتعبر عن شخصيته، هي الحركة السلفية التي يمثلها ابن باديس وزملاؤه»[1].

وكان الاتجاه السلفي للإمام هو السبب في نقده للصوفية ومعارضته لفرقهم.

موقفه من الصوفية:

كان ابن باديس دائم الشكوى من انتشار أصحاب الطرق الصوفية في العالم الإسلامي كله، وليس في الجزائر فحسب، فلم يكن الإمام يفكر في نطاق بلده الجزائر ولكنه كان يعني بالعالم الإسلامي «فالاتحاد الإسلامي، والوحدة العربية بالمعنى الروحي والمعنى الأدبي والمعنى الأخوي هما موجودان تزول الجبال ولا يزولان»[2].

---

(١) «ابن باديس... حياته وآثاره» (١/ ٥٤) للأستاذ الدكتور عمار الطالبي الأستاذ المساعد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الجزائر وهو أحد العلماء المحققين الذين تتلمذوا على أستاذنا الدكتور النشّار.

(٢) «ابن باديس... حياته وآثاره» (٣/٣٧٩)، وكان الإمام ابن باديس على وعي بما يحاك به من مؤامرات ضد فكرة الوحدة الإسلامية أو العربية فيستطرد قائلاً: =

ويدافع عن الإيمان بهذه الفكرة أن يعني بالإصلاح الديني على مستوى الرقعة الواسعة لبلاد المسلمين، وعلى قمة برامج الإصلاح يدعو إلى القضاء على البدع التي يتمسك بها الطرقية والتي عمت أرجاء الأقطار الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها فإن «صوت العلماء بالإصلاح الإسلامي والحمد لله قد ارتفع من مصر وطرابلس والمغرب الأقصى»[1]، ولكنه يرى في الوقت نفسه أن البدع الطرقية وغيرها في مصر بصفة خاصة هي أكثرها انتشارًا فإنها في نظره هي «مبعث أكثر البدع والضلالات الاعتقادية والعملية من يوم انتصبت فيها دولة الفاطميين فرسخت فيها البدع الطرقية وغير الطرقية»[2].

= «بل هما في ازدياد دائم بقدر ما يشاهد الناس من عمل في الغرب ضد العروبة والإسلام، وأما بالمعنى السياسي والمعنى العملي فلا وجود إلى اليوم لهما»، وكما يتهم الإمام ابن باديس بما يحدث من جراء «أولئك الدراويش الخبثاء أو البله الذين يغشون أطراف الجزائر وتونس ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الإسلام ممن اتخذ دينه متجرًا يكسب به الحطام وجعل من ذكر الله آلة تسلب ألوان من الطعام». من «تاريخ الأستاذ الإمام» (٢/ ٤٠٤).

(١) المصدر السابق (٢/١١٦).

(٢) المصدر السابق (٢/٦٦).

ولا يخفى علينا هنا يقظة الإمام للصلة بين التشيع والتصوف، كذلك تنبه إلى الآثار الناجمة عن انحرافات الصوفية فخصص لهم بنودًا خاصة في برنامج جمعية المسلمين بالجزائر تناول فيها «الأوضاع الطرفية» ووصفها بأنها «بدعة لم يعرفها السلف ومبناها كلها على الغلو في الشيخ والتحيز لأتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ»، ولم يخف عليه أسباب هذا الغلو ودوافعه من تحقيق مصالح دنيوية ومنافع مادية فيقول: «إلى ما هناك من استغلال» ثم يوضح الأخطار الناجمة من التوكل والتكاسل والحياة في التكايا مع الاستسلام لفكرة الجبر وغيرها من الأفكار الباطلة وطرق السلوك المتبدعة التي تتسلط على العقول والهمم فتصيبها بالجمود مع إماتة الهمم وقتل الشعور «وغير ذلك من الشرور»[1].

والحق أن ابن باديس لم يبدأ بالخصومة للصوفية لأنه كان يود جمعهم إلى صفّه فقد أراد في أول الأمر أن يستخلص العناصر السليمة فيها لأن الإخوة في الله فوق أي اعتبار آخر، فلما حاربته بدأ

---

(١) المصدر السابق (٢/١٢٣).

يعزلها عن الشعب، فلما لجأت إلى المستعمر أظهرها بمظهر الخيانة[١]، يقول الإمام: «وقد عزمنا على أن نترك أمرها للأمة التي تتولى القضاء عليها ثم نمد يدنا لمن كان على بقية من نسبته إليها لنعمل معًا في ميادين الحياة على شريطة واحدة وهي أن لا يكون آلة مسخّرة في يد من اعتاد تسخيرهم فكل طرق مستقل في نفسه عن التسخير فنحن نمد يدنا له للعمل في الصالح العام»[٢].

كذلك لا نستطيع القول بأن خصومته لهم بدأت على أثر محاولة اغتياله في عام ١٩٢٧ لأن الإمام عفا عمن حاول الغدر به وتمثل بقول رسول الله صلوات الله عليه: «**اللَّهُمَّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[٣]، وإنما كانت آراء ابن باديس نابعة من موقف عملي صرف، فقد حاربهم لما عرف فيهم من أخطاء فأعلن أنه سيعمل

---

(١) «الإمام عبد الحميد بن باديس» د/ محمود قاسم (ص:٦١).

(٢) المصدر السابق (ص:١٠٢)، النص الثالث عشر المصدر مجلة الشهاب محرم ١٣٠٧هـ - ١٩٣٨م.

(٣) المصدر السابق (ص:٢١).

على كشفها وهدمها مهما تحمّل في ذلك من صعاب»[١]، وليس المقصود هنا بالصعاب قوة شوكة فرق الصوفية واستمدادهم العون من السلطة الحاكمة فحسب، بل تتمثل أيضًا فيما يستندون إليه من أسس نظرية تتمثل في فلسفة وحدة الوجود، التي انبثق منها القول بأن الولاية أفضل من النبوة[٢]، كما وقف في وجه بدعة الغلو في المشايخ واعتقاد الغوث وبناء القباب على القبور[٣].

وفي منهجه الجدلي مع فرق الصوفية أبان زيف إدعائهم بأنهم متبعين للعلماء السابقين الذي سكتوا عنهم وأقروا أفعالهم، فيذهب إلى أن الصوفية جهلوا موقف علماء السلف -وهم أهل العلم الحقيقيين في رأيه- ولا يخلو منهم عصر من العصور لأنهم يقومون بالحق وحفظ السنة «والرد على المحرّفين والمتغالين والزائفين والمبدعين»[٤]، ولكن السبب في عدم معرفة عامة المسلمين بهم بالرغم من مواقفهم

---

(١) المصدر السابق (ص:١٥٢) النص الثالث عشر - الشهاب ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م.
(٢) المصدر السابق (ص:١٤٨، ١٥٠) نصوص عن الإمام ابن باديس.
(٣) «ابن باديس... حياته وآثاره» (٣/١٣٣).
(٤) المصدر السابق (٣/١٣٥).

المعروفة على مدى الأجيال يرجع إلى «غلبة الجهل وكثرة أهل الضلال»[١]، ولهذا رأى ابن باديس أن أفضل الطرق للرد على هؤلاء هو «نشر ما تقدم من كلام دعاة الحق وأنصار الهدى في سالف الزمان»[٢].

وينقل الإمام ابن باديس ما يراه من الأدلة القاطعة في هذا الصدد وهي أقوال كل من القشيري والطرطوشي وابن حيان الأندلسي -من أهل القرن السابع والثامن- والشاطبي وغيرهم على مدى العصور وكلها تدور حول معارضة كافة الصوفية التي يتناقلها الصوفية أو المتشبهين بهم على مر الأزمان، وبدأ مستشهدًا بالقشيري نفسه حيث وصف بعضهم بقلة المبالاة بالدين ورفض التمييز بين الحلال والحرام[٣].

كما أعطى أبو حيان الأندلسي صورة صحيحة عن المتسمين بالمشايخ بغية الشهرة تاركين التكسب بحجة التفرغ للأذكار التي لم تأت بالكتاب أو السنة، وينقطعون عن الناس في الخلوات حريصين

(١) المصدر السابق (٣/١٣٥).
(٢) المصدر السابق (٣/١٣٥).
(٣) المصدر السابق (٣/٤٣).

على الانفراد على سجادة «والعجب لمثل هؤلاء كيف ترتب لهم الرواتب وتبنى لهم الربط وتوقف عليهم الأوقاف»[١]؟!

ويصفهم الشاطبي بأنهم أصحاب مجالس الذكر التي ابتدعوها الذين قرأوا الآيات والأحاديث فأنزلوها على آرائهم بينما يجهلون طرق العبادات الصحيحة[٢].

وفي إيجاز يسميهم الشيخ الأخضري الجزائري بأنهم طائفة البلع والازدراد[٣]، ولعل هذا الوصف نسبة إلى النهم الذي اشتهروا به على مآدبهم.

ويمضي الإمام ابن باديس بنقل أقوال أخرى لا تخرج عما قدمناه، فتارة هم الطائفة البدعية، وتارة أخرى هم الذين يذيعون عن أنفسهم الكرامات ويعلنون بأن «سوابق الأقدار منوطة بإرادتهم

---

(١) المصدر السابق (٣/٤٤).
(٢) المصدر السابق (٣/٤٥).
(٣) المصدر السابق (٣/٤٥).

وتأثيرات الأكوان صادرة عن اختيارهم»[١].

ومن هذه النصوص المتعددة التي اختارها ابن باديس وقدمها برهانًا على صحة موقفه يدلنا على موافقته لما حوته من آراء، أضف إلى ذلك حكمه القاطع على الطرق فهي حيثما كانت فهي تكأة وملجأ البدع والخرافات[٢].

رأيه في الزهد:

كان من الطبيعي أن يتخذ ابن باديس موقف المعارضة للزهد، فهو أمام قوة هائلة وهي قوة فرنسا المسيطرة على الجزائر حينئذٍ، لا يستطيع أن يجابهها إلا بقوة أخرى إن لم تكن تماثلها؛ فلابد على الأقل من الدعوة إلى رفع شأن الأمة الجزائرية بالإصلاحات في كافة الجوانب عن طريق الأخذ بأسباب الجوانب المادية في الحياة إلى جانب الحياة الروحية.

لهذا أعلن مطالبه في كلمات محددة حاسمة، قال: «إننا نريد الحياة وللحياة خلقنا، وإن الحياة لا تكون بالخبز وحده فهنالك ما علمتم

---

(١) المصدر السابق (٣/٤٦).
(٢) المصدر السابق (٣/٦٦).

من مطالبنا العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ولكنها ضروريات في الحياة»[١].

إن إمام الجزائر أصاب الحقيقة في رؤيته للحياة في شمول واتساع أدخل في إطارها عوامل متشعبة اقتصادية واجتماعية وسياسية وعدّها من ضروريات حياة الأمم، كذلك يبدو هذا الرأي متسقًا تمامًا مع الكفاح الذي خاضه الإمام لكي يخرج الغالبية العظمى من الأمة الجزائرية من ذل الفاقة والعوز إلى عز القوة والمنعة، فلابد له من الدعوة لطرح ألوان الزهد جانبًا وإلا لأصبح مؤيدًا لبقاء حالة المسلمين كما هي في الفقر وهو قرين الضعف أيضًا؛ فإن نقطة الضعف الخطيرة بين المسلمين كما يراها في هؤلاء «الفقراء المبدعين للزهد»[٢]، الذين حاولوا تصوير أنفسهم للأمة الجزائرية بأنهم المثل الأعلى بينما الحقيقة غير ذلك فهم يتمسكون بالبدع ويخالفون السنّة.

ومع التزام الإمام بضرورة الدعوة إلى اتباع السلف، فإنه وقف مليًا أمام زهد أبي ذر الغفاري ﷺ ثم عده من قبيل الاستثناء لأنه

---

(١) «ابن باديس... حياته وآثاره» (٢/ ١٨٠).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٤٢).

كان «يأخذ نفسه بأعلى درجات الزهد والتقلل من الدنيا ويريد حمل الناس على ذلك بشدة في الحق وصرامة فيه لم يستطع الناس ذلك وما كانوا ليستطيعوا فكانوا يتعدون منه وكان هو يحب الانفراد عنهم فلم يتأت نشر علمه فيهم»[١].

أما تفسيره للآيات القرآنية التي كان يتمسك بها أبو ذر الغفاري في دعوته، فإن الإمام يرى أنها صريحة في الأمر بأداء حق المال وهو الزكاة، وأنها تعني الممتنعين عن أداء هذا الحق، وقلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة:٣٤-٣٥].

فالقاعدة العامة هي التي تسري على الكافة وهي الأمر بإخراج الزكاة، اما الحض على الزهد فهو من قبيل الفضل الذي يختلف فيه الناس ويصعب حملهم جميعًا عليه.

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٩٤).

فإذا ما انتقلنا إلى الحديث «**ما يسرني أن لي أحد ذهبًا تأتي علي ثالثة** -أي ليلة- **وعندي منه دينارًا إلا دينارًا أرصده لدين علي**»[١]، فإن المقصود به الترغيب في البذل وهي حالة فضل يتفاوت الناس في الأخذ بها.

فإذا كان أبو ذر قد أصاب في اختيار الزهد لنفسه وعزوفه عن الادخار إلا أنه «أخطأ فيما أراد من حمل الناس على حالة فضل لم يوجبها الله عليهم ولن يستطيعوها»[٢].

وكان اختلاف أبي ذر مع عثمان بن عفان في الرأي يرجع إلى أن الخليفة كان اكثر وعيًا بكيفية سياسة الأمة، وتدبير شئونها، إذ لا يجوز إجبار الرعية على ما لا يتفق والفطرة العامة بينما ربما أدت آراء أبي ذر إلى الفتنة بين الفقراء والأغنياء، إذ كان يندد بالأغنياء غير مكتفٍ بإخراجهم للزكاة، وظهرت حكمة ذي النورين في نظريته التي تقتضي عدم إجبار الرعية على الزهد مع دعوته إياهم إلى

---

(١) المصدر السابق (٤/٩٩).

(٢) المصدر السابق (٤/١٠٢).

الاجتهاد في العمل والاقتصاد في إنفاق الأموال[١].

ويسلك الإمام ابن باديس طريقًا وسطًا في التوفيق بين كلا الرأيين، فيذهب إلى أنه من واجب قادة الأمة ترغيبها في «الاجتهاد في العمل والاقتصاد في الاقتناء للأموال، فبذلك يتربى الناس على العمل والاجتهاد فلا يمدون أعينهم لما في أيدي الناس ويتربون على البذل والسخاء فيما يحصلون من ثمرات كدهم فيجمعون بين العمل والغنى وبين السخاء[٢].

إن دراسة هذه العبارة تجعلنا ندرك السبب في موقفه الفكري من الزهد، لقد نبذ فكرة الزهد لأنها تؤدي إلى السلبية والقعود عن العمل بينما يرى ضرورة الأخذ بأسباب القوة والعمل والاجتهاد من أجل التقدم.

ويتخذ ابن باديس من النصوص القرآنية بتفسيرها الذي أجمع عليه باقي الصحابة دليلًا قطعيًا على مخالفة أبي ذر لنظريات الصحابة إلا أنه يعجبه لما فيه من حرية إبداء الرأي دون ضغط «فكانوا بذلك

---

(١) المصدر السابق (٤/١٠٢).
(٢) المصدر السابق (٤/١٠٢).

منفذين لما جاء به الإسلام من احترام الآراء وحرية النظر والتفكير»[١].

كذلك يعظم شخصية الصحابي الزاهد مواقفه التي أعلن فيها إسلامه بجرأة بين المشركين أول أمره غير عابئ بتعذيبهم له، أضف إلى ذلك مواقفه المعارضة لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التي لم يخش فيها بأسه، كذلك يرى الإمام أن مذهب أبي ذر الغفاري ومع أنه شاذ فإنه «أول اشتراكي في المال من المسلمين في أول عصور الصحابة»[٢].

وليس المقصود بالحديث الذي يصف فيه الصحابي الزاهد بالضعف أن هذا الضعف يتصل بناحية أخلاقية مع ما رأيناه من جرأته في مواجهة المشركين وأولي الأمر ولكن المقصود به هو عدم اتساع صدره لما يرى مما يكره من الناس «وذلك ضعيف عن القيام بالحكم بين الناس وعن الولاية على المال والرعاية للأيتام»[٣]، أي أن أبا ذر ضعيف إذن عن المعاملة مع الناس والاختلاط بهم لضيق صدره بما يراه منهم، وهذا مقتضى شدته في الحق، وهذا هو المقصود

---

(١) المصدر السابق (٤/٩٩).
(٢) «ابن باديس... حياته وآثاره» (٤/٩٩-١٠٠).
(٣) المصدر السابق (٤/٩٦).

بأنه لم يكن صالحًا للإمارة»[١].

وفي ختام ترجمته لأبي ذر الغفاري يقول ابن باديس: «وطويت بوفاته صفحة من حياة زكية فاضلة شاذة في عصر الخير والفضل بين فضلاء أخيار من أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتشدد في الزهد»[٢].

هذه هي الحركة السلفية على يد الإمام ابن باديس التي آتت ثمارها العظيمة في تحقيق الثورة الجزائرية.

وقد وضح لنا تأثير ابن تيمية في الإمام الجزائري بالرغم من القرون الطويلة التي تفصل بينهما، وقد يرجع الفضل أيضًا إلى حرص ابن باديس على التمسك بالإسلام في أصله الأول، إسلام الكتاب والسنة.

ولقد أثمر نداء ابن تيمية في العصر الحديث أيضًا في دائرة الفكر، إن هذا النداء كان بمثابة «نفخة صور أحدثت في العالم حركة دائمة لاتزال نسمع صداها في أقطار الإسلام بين حين وآخر»[٣].

* * *

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٠٢).

(٢) المصدر السابق (٤/ ١٠٤).

(٣) «تجديد الدين وإحيائه» المودودي (ص: ٩٠).

(٣) الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي

الحركة السلفية بالهند:

لكي نلقي الضوء على الحركة السلفية في الهند في العصر الحديث لابد لنا أن نلقي نظرة على أحوال المسلمين بالهند قبل إنشاء دولة الباكستان ثم نتناول أفكار بعض كبار المفكرين في هذه الدولة الإسلامية.

يقول الأمير علي: «لقد امتدت آثار التصوف بسرعة خاطفة من العراق وإيران إلى الهند، حيث وجدت تربة خصبة هناك، وأصبحت أرض الهند مأوى لعدد ضخم من الأولياء رجالًا ونساء، حيث تحولت مقابرهم بعد موتهم إلى مزارات وأضرحة يؤمها المسلمون والهندوس معًا.

وكان الغزو التتاري قد زحف بآثاره على الهند، وظلت هذه الآثار تتضخم بمضي القرون، حتى ظهر الملك «أكبر» (٩٤٦-١٠١٤هـ)، الذي قرر أن بعثة محمد ﷺ «قد مضت عليها ألف سنة

ولم يكن أجل هذا الدين إلا هذا المقدار من السنين، لذلك قد نسخ ويجب أن يستبدل به دين جديد»[١].

وشرع في عدة تغييرات للوصول إلى هدفه؛ فأباح للمسلمين الجدد ان يرتدوا وأصدر مرسومًا بمنع ذبح البقر، وشارك في أعياد الهنادك ومواسمهم، وحلل الخمر، وأباح الربا والمقامرة، وأسقط الاغتسال من الجنابة، وأصدر أمرًا بمنع تعليم اللغة العربية[٢].

ثم حدث ما هو أسوأ من هذا كله «فكان العلماء والمشايخ والصوفية والأمراء والأعيان كلهم يخرون للملك سجدًا كلما دخلوا عليه الباب»[٣].

وكان قوام الدين الجديد الذي نادى به هذا الملك خليطًا بين الإسلام والهندوكية، ولم يخل أيضًا من عناصر مجوسية ومسيحية، فأخذ من المجوس عبادة النار، وأوقدت في قصر الملك نارًا دائمة،

---

(١) «تجديد الدين وإحيائه» أبي الأعلى المودودي (ص:٩٢).
(٢) «تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند» (ص:٧١-٧٣) مسعود الندوي.
(٣) ن. م (ص:٧٥).

واقتبس من المسيحية ضرب النواقيس وأشياء أخرى، إلا أن الديانة الهندوكية احتفظت بأصولها الكبرى لها ديانة الغلبة، أما الإسلام فقد قوبل بمعارضة شديدة وحوربت القلة الباقية من علمائه، حتى هؤلاء القلة لم يسلموا من تأثير التصوف المختلط بالعناصر غير الإسلامية، ويرجع السبب إلى إهمال الكتاب والسنة، والانكباب على التصوف، والتهافت على علوم اليونان وخرافاتهم والانحراف عن اللغة العربية»[١].

وفي ظل هذه الظروف، نشأ الشيخ أحمد بن عبد الأحد الفاروقي السرهندي، «وتمت تربيته وتعليمه بين قوم كانوا أصلح رجال زمانهم، وهم وإن كانوا لا يستطيعون أن يحاربوا ما حولهم من الفساد، إلا أنهم كانوا محتفظين بإيمانهم وأعمالهم»[٢].

ونجح الشيخ السرهندي في إنقاذ الإسلام بالهند من أن يختفي وراء أضابير الديانات الأخرى، وسلك طريق الأئمة الذين سلكوا

---

(١) ن. م (ص:٢١).
(٢) «تجديد الدين» المودودي (ص:٩٨).

طريق الجهاد من قبل كأحمد بن حنبل وابن تيمية «متنكبًا طرق المبتدعة، معرضًا بوجهه عن متاع الحياة، غير خائف في ذلك ملامة لائم ولا بأس ملك»[١].

وبدأ في التأليف للرد على الشيعة منتقدًا أعمالهم علنًا، وحينما وشوا به إلى الملك واستدعاه للحضور، حياه بتحية الإسلام ولم يسجد له شأن الآخرين، فأمر الملك بحبسه ولم يمنعه السجن من الدعوة إلى الحق والإرشاد إلى طاعة الله ورسوله ﷺ.

وأثار عجب الملك وحاشيته أن الشيخ احدث انقلابًا إذْ تاب على يديه المسجونون وانقلب قطّاع الطرق والمفسدون في الأرض رجالًا برره بفضل دعوة السرهندي[٢].

وحينما عفا عنه الملك وخرج من السجن، أخذ يطالب بإلغاء الإجراءات التي تمس التشريع الإسلامي، وعكف على دراسة

(١) «تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند» مسعود الندوي (ص:٩٩-١٠٠).

(٢) «تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند» مسعود الندوي (ص:١٠١-١٠٢)، وينظر أيضًا كتاب: «الدعوة إلى الإسلام» للسير توماس أرنولد (ص:٤٥٣) ط.١٩٥٧.

أسباب نكبات المسلمين في عصره، فرأى أنها نشأت بسبب الفرق الثلاث: الملك والأمراء الذي اتخذوا الدين لهوًا ولعبًا، وعلماء السوء الذين اتخذوا من مناصبهم مطية لأهوائهم والصوفية الذين «استبدلوا بالتوحيد الإسلامي وحدة فلسفية تدعي بوحدة الوجود، وتتشكل بالحلول والاتحاد»[١].

ومما ساعده على خوض المعركة مع الصوفية أنه كان من رجال الصوفية وكان في بدء عهده قد مارس طريقهم في الرياضة والتزكية، ولما أعلن في كتبه خطأ مذهب وحدة الوجود، لم يجسروا على مهاجمته لأنه كان منهم ومطّلعًا على أسرارهم، ومن النصوص التي أوردها صاحب «تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند» ننقل آراء السرهندي في التصوف، يقول: «إياك وأن تخدع بترهات الصوفية وتزعم وأن غير الحق والحق جل شأنه كلاهما واحد لا فرق بينهما»[٢].

---

(١) ن.م (ص:١٠٤-١٠٥).

(٢) «تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند» مسعود الندوي (ص:١١٤)، نقلًا عن السرهندي «المكتوب الأول» (ج٢).

كما اعترض أيضًا على مكاشفات القوم المخالفة للكتاب والسنة لأنهما الأساس في إثبات الأحكام الشرعية، ويلحق بهما القياس والإجماع «أما إلهام الأولياء؛ فلا يحل حرامًا ولا يحرم حلالًا، وكذلك «كشوف» الصوفية، لا عمل لها في وجوب شيء من الأحكام، أو جعلها سنّة»[1].

وأثّر الشيخ السرهندي -باتباعه للسُّنة- وولعه بالعمل بها في رجوع الناس إلى دراسة الحديث النبوي «حتى نشأت بعد ذلك طائفة -ولو قليلة- من الصوفية المحدثين»[2].

من أجل هذا يعتبره محمد إقبال «المصلح العظيم للتصوف» ويلّقبه بالرجل العبقري العظيم، ويعدّه من رجال الدين الكبار في القرن السابع عشر[3].

وقد سلك السرهندي في سبيل الوصول إلى غايته رد الإسلام إلى

---

(١) ن. م (ص:١١٦) نقلًا عن السرهندي «المكتوب الخامس والخمسون» (١٠٨/٢).
(٢) ن. م (ص:١١٧).
(٣) محمد إقبال «تجديد التفكير الديني في الإسلام» (ص:٢٢١-٢٢٢).

مذهب أهل السنّة فكانت من أهم مؤلفاته الرسائل التي وجهها إلى مريديه لشرح مسائل كثيرة في العقيدة الإسلامية والشعائر «وهي في مجموعها من أهم الكتب المعمرة في الدين التي صدرت في الهند الإسلامية»[١]، لأنه استطاع أن يزيل آثار تعاليم الإمبراطور «أكبر».

***

(١) س. عنايت الله . مادة أحمد سرهندي - دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثاني العدد ١٣.

النتائج

رأينا المجددين الثلاثة ينجحون في إعادة المسلمين في بلادهم إلى الطريق القويم، فاستطاع السرهندي أن ينقذ المسلمين في الهند من خلال الشرك والكفر ويذكرهم بعقيدة التوحيد، ونجح الإمام عبدالحميد ابن باديس في المجالين الخارجي والداخلي محققًا هدفًا مزدوجًا فألهب حماس الشعب الجزائري بالجهاد ليتخلص من الاستعمار الفرنسي الاستيطاني اللاإنساني، كما استطاع الوقوف في وجه الصوفية المنحرفين.

أما الإمام النورسي فقد أنجز عملًا أشبه بالأعمال الخارقة إذ أعاد الأتراك إلى دينهم وتراثهم الإسلامي وأنقذ الأجيال من الإلحاد الذي فرضه عليهم أتاتورك اليهودي «إنها قصة مجاهد مسلم عاش ٢٨ عامًا من عمره في السجون والمنفى، ولكنه استطاع وحده -بتوفيق من الله وفضله- أن يهز كيان تركيا من أدناها إلى أقصاها

وأن ينطلق خارجها، وأن يقذف الرعب في قلوب أعداء الإسلام، وإن يحمل بيده شعلة من النور في عصرنا، وإن يترك مدرسة تحمل النور وتبدد به الظلام»[1].

فما السّر في هذا النجاح المؤزر الذي ناله الأئمة الثلاثة؟

لقد عضّوا على التراث الإسلامي بالنواجذ وأيقظوا في الأمة روح الاعتزاز بدينها، واستمسكوا بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، محاربين للبدع والضلالات، وأقنعوا المسلمين بأن الإسلام يصلح للعصر الحديث أيضًا خلافًا للمتفرنجين الواصفين للتراث بأنه أدّى مهمته في العصور الغابرة ولم يعد يصلح لعصرنا!

ويمكن الاستشهاد هاهنا برأي الدكتور زكي نجيب محمود الذي خاض تجربة الانغماس في الثقافة الغربية بعمق ثم انتقل في نهاية حياته للتراث الإسلامي: دراسةً وفحصًا ومقارنةً بحضارة الغرب ومن ثمّ أصبح فخورًا بدينه، داعيًا كل مسلم إلى «الاعتزاز بدينه

(١) أحمد بهجت «سعيد النورسي.. الرجل والدور» (ص:٥٤)، كتاب «بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي».

وإحساسه بالتفوق العقدي لا الخضوع لإحساس الهزيمة أمام حضارة العصر بسبب أنها أكثر تقدمًا حقًا، أن واقع ببلاد الشعوب الإسلامية أقل بلاد الدنيا نصيبًا من التقدم «اللّٰهم إلا إذا اخترنا الإسلام في ذاته على انه هو نفس التقدم مهما يكن نصيب المسلمين بعد ذلك من التعليم، ومن الإنتاج الاقتصادي، ومن مستوى المعيشة... إلخ»[(١)].

خلاصة القول:

أن أولئك العلماء حرصوا على ربط أبناء المسلمين المعاصرين، بالقيم الثابتة ليظل اللقاء متصلًا على طريق واحد «رسمته القيم الأساسية لهذه الأمة، هذه القيم التي ما زالت ثابتة قائمة بالحق والعدل، وعلى التوحيد

---

(١) د/ زكي نجيب محمود «رؤية إسلامية» (ص:١٦) مكتبة الأسرة بمصر ١٩٩٥م، ويحثّ الدكتور زكي نجيب رحمه الله كل مسلم على ضرورة فهم العبادة أنها تشمل طلب العلم واستخدام العلم في الارتقاء لا الارتكان على عبادة السكون والتعود والزهد والرضا بالقليل من الدنيا» «العلم» (ص:١٨).
ويُنظر بحثه بعنوان «حتى يغيروا ما بأنفسهم» (ص:١٢٢) نفس المصدر، ويقول (ص:١٨٨): «عن تاريخنا شاهد بأننا صناع حضارات».
فما الذي يمنع من استئناف دورنا من جديد ؟

والإيمان، تبني الأجيال جيلًا بعد جيل، وتنمي علائقه وروابطه، وتنفي عنه الدخيل والغريب والفاسد، وتؤصل الأصيل والصحيح، وترد دائمًا محاولة الإفناء والاحتواء والتغريب وتصحيح المفاهيم وتحرير القيم، فهي رسالة دائبة لا تتوقف منذ عرف المسلمون العرب أن لهم عدوًّا قائمًا على حدودهم»[1].

ترجيح المشروع الإسلامي في طريقنا للنهضة:

وتدفعنا تداعيات الأفكار إلى عقد مقارنة بين مشروعين ظلا يتنافسان في رسم خطط المستقبل والبحث عن الطريق الأمثل للنهضة، وهما: المشروع «النهضوي» العربي، والمشروع الإسلامي، وسنعرض لكليهما في مجالين:

أحدهما: المجال السياسي.

والثاني: المجال الثقافي والتعليمي.

---

(١) أنور الجندي «مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام» (ص:١٦٤) سلسلة البحوث الإسلامية بالأزهر ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

أولاً: المجال السياسي

المشروع النهضوي العربي:

يغلب عليه الطابع العلماني والقومي ويحمل في أحشائه الجفاء وأحيانًا الخصومة لفكرة الجامعة الإسلامية التي تبناها السلطان عبد الحميد.

وقد تحمسّ للمشروع النهضوي جمع من المفكرين أمثال لطفي السيد وطه حسن وساطع الحصري وخير الدين التونسي والكواكبي وقسطنطين رزيق وغيرهم.

ويعتمد في منهجه على «تشريح وتحليل بنية العقل العربي ودراسة نظم المعرفة في الثقافة العربية»[(١)].

ويوصف منهج اتباع هذا المشروع بأنه منهج عقلي يحمل على عاتقه «آفاق الاجتهاد ودعوات التجويد وآيات التنوير، وتمثل التراث ونقده في سياقاته الاجتماعية والسياسية والمعرفية»[(٢)].

---

(١) د/ يحيى الجمل مقال بعنوان «محمد عابد الجابري - قامة فكرية فارعة» (ص:١٥) جريدة المصري اليوم ٢٦ جماد أول ١٤٣١هـ - ٢٠١٠/٥/١٠م.

(٢) حامد عمار «ما يعزينا فيك يا جابري» جريدة الأهرام (ص:١١) ٢٧ جماد أول ١٤٣١هـ - ٢٠١٠/٥/١١م.

ويُلاحظ في التعريف إيراد لفظي التجديد والتنوير، وهما لا يعنيان التجديد بالمصطلح الإسلامي الذي يعني نفض الغبار عن الإسلام بما لحق به في تصور البعض من البدع، ولكن يعني عند هؤلاء ابتداع دين جديد لا يمت بصلة بإسلام الكتاب والسنة، وكذلك لفظ التنوير يقصدون به اتباع التصورات الغربية للدين كما كان في القرون الوسطى حيث دأب «التنويريون» على مهاجمة رجال الكنيسة و«نقد» النصرانية باستخدام العقلانية.

يقول الدكتور محمد حسين: «إن التفريق بين العروبة والإسلام في أيامنا هذه لا يتند إلى أساس، فالإسلام هو الذي أعطى للعرب لغتهم، ووحّدهم عليها وعلى القيم التي تضمنها كتابه وسنة رسوله ﷺ، فالتقت قلوبهم وعقولهم وأمزجتهم على ما يُحلون وما يحرمون..

ولم يقتصر الأمر على قيام هذه الروابط الإسلامية الجامعة بين العرب، فقد امتد آثارها إلى سائر المسلمين الذين تأثروا بهذه القيم الخلقية والاجتماعية ذاتها».

وقد أرَّخ لنشأة الدعوة المعاصرة إلى القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، التي تبناها كثرة من مسيحي لبنان مثل البستاني واليازجي والشدياق وأديب إسحاق ونقاش وشميل وتقلا

ومشاقة وزيدان ونمر وصرّوف «وأغلبهم ممن اتصلوا بالإرساليات الإنجيلية الأمريكية.. وأكثر في الوقت نفسه ينتمون إلى الماسونية»[١]، ثم تبناه عبد الناصر ونفخ فيه من أبواق الدعاية المضللة ما جعله يسيطر على الساحة السياسية العربية بقصد طمس المشروع الإسلامي.

ومنذ ذلك الوقت نشأت التفرقة بين العروبة والإسلام على يد هذه الطائفة من المفكرين والكتاب من نصارى الشام ولم يعد اسم «الجامعة العربية» مرادفًا لاسم «الجامعة الإسلامية»، وكانت الأخيرة وقتذاك «هي الرابطة التي تربط أجزاء الدولة العثمانية وتجمعهم تحت راية السلطنة العثمانية التي جمعت بين الزعامة السياسية والزعامة الدينية منذ تلقب سلاطينها بلقب الخلافة الإسلامية.

وقد زاد نفوذ هذه الجامعة في قلوب الناس منذ عُني السلطان عبد الحميد بتدعيمها، وبدعوة الناس إلى الالتفاف حول رايتها والاعتصام بها في وجه الأطماع الاستعمارية التي تنتظر بفارغ الصبر الوقت الملائم لاقتسام البلاد الداخلة في هذه الدولة»[٢].

---

(١) د/ محمد محمد حسين «الإسلام والحضارة الغربية» (ص:٢٠١-٢٠٢).

(٢) المصدر السابق (ص:٢٠٨).

ونرى الآن أن الاستعمار حقق أهدافه كاملة، فغرس إسرائيل في قلب العالم العربي والإسلامي، ووقف من وراء الستار يؤجج نار الفتن بواسطة الانقلابات العسكرية منذ حركة أتاتورك اليهودي وسارت في طريقه الجيوش ببلاد العرب والمسلمين، تعادي الإسلام وتقصي زعماءه وعلماءه وتلقي بهم في غياهب المعتقلات والسجون.

وإذا اتخذنا من مصر «أنموذجًا» لتنفيذ هذا المشروع لها لنا الخطب إذ جرّ عليها ويلات الهزيمة العسكرية في حربي ١٩٥٦، و١٩٦٧ حيث حقق لإسرائيل حلمها باحتلال القدس وجعلها عاصمة لها.

ولم تكتمل الفرحة بانتصار أكتوبر ١٩٧٣م، إذ أجهضه السادات بمعاهدة السلام إذ كانت تعني في الواقع السياسي والاقتصادي والثقافي الاستسلام لليهود وقبول «العولمة» عن طيب خاطر، يقول الدكتور جلال أمين: «عندما بدأ عهد حسني مبارك في سنة ١٩٨١ بدا وكأن المهمات التي عهد إلى السادات بتنفيذها قد نفذت بالفعل: حدث الانفتاح الاقتصادي وأصبحت مصر في حكم «المستعمرة الأمريكية» ووقعت اتفاقية سلام مع إسرائيل، وفتحت أبواب مصر

للإسرائيليين لم يبق إلا تنفيذ ما يستجد من أعمال»[١].

والمعركة الآن على أشدها في مصر بين المثقفين المتغربين بكافة أطيافهم يساريين وليبراليين ومتأمركين يخوضون معركتهم الأخيرة بضراوة لأن مؤشرات الاستفتاء كانت لصالح المشروع الإسلامي عقب ثورة ٢٥ يناير.

ثانيًا: المجال الثقافي والتعليمي:

يتضح لمن يفحص مناهج الدراسات الإسلامية بالجامعات المصرية إنها من وضع وتأسيس المستشرقين من اليهود والنصارى حيث تركوا بصماتهم عليها بإثارة الشبهات ومحاربة الإسلام بمصدريه: «القرآن والسنة» والتزوير في التاريخ وغيرها من الوسائل التي تعكس ما تكنه نفوسهم من أحقاد متوارثة منذ الحروب الصليبية، ومن ثم سمموا عقول أجيال إلا من رحم الله، ومازالت آثارهم باقية إلى الآن.

يقول الأستاذ أنور الجندي رحمه الله تعالى: «وإذا راجعنا تقارير اللورد كرومر السنوية التي جعلها رسالته إلى الجيل الجديد من

---

(١) د/ جلال أمين «مصر والمصريون في عهد مبارك» (ص:٤١) ط٢. دار الشروق - القاهرة ٢٠١١م.

المثقفين الذين كان يعدهم لتسلم زمام الحكم من الاحتلال البريطاني نجده قد وضع أسس هذه الحملات الضارية على الإسلام واللغة العربية والحضارة الإسلامية والتاريخ، فقد سجلت هذه التقارير الخطوط العامة لتدعيم كل عوامل الإيمان الوطني والاعتزاز العربي الإسلامي، وعندما نقرأ اليوم ما يكتبه خلفاء المبشرين ودعاة التغريب لا نعجب لأننا نجد العبارات منقولة بنصها، وأن معظم ما كتبه كرومر قد ردده من بعده سلامة موسى وطه حسين ومحمود عزمي وعلي عبد الرازق ولطفي السيد»[1].

ويقول الدكتور أحمد عبد الرحمن: «الثقافة المادية العلمانية الأوروبية معروضة في أسواقنا الثقافية منذ عام ١٣١٢هـ - ١٧٩٨م، حين غزا نابليون مصر، ولم يقنع العارضون بمجرد العرض وتزيين البضاعة، ولكنهم مارسوا القسر أحيانًا والتضليل أحيانًا أخرى، ومن أجل بلوغ غايتهم أسّسوا الجامعات والمدارس وأصدروا الصحف والمجلاّت وسخّروا الآداب والفنون لتشويه الإسلام وتاريخه

---

(١) أنور الجندي «مقدمات العلوم والمناهج - المجلد الخامس» التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة» (ص:٩٦) دار الأنصار بالقاهرة ١٩٨٣م.

ورجاله وكل ما يمت إليه بصلة...

ومارست عمليات الإحلال القسري لثقافتهم كل الدول الاستعمارية: بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وهولندا والبرتغال وروسيا، وأمريكا بطريقتها الخاصة... وكانت الغاية القصوى لعمليات الإحلال: إخراج الأمة المسلمة من دينها الذي أثبت التاريخ أنه سلاحها الفعال ودرعها الواقية وقلعتها الحصينة»[١].

والدروس المستفادة من جهاد تلك الصفوة من علمائنا أمثال الشيخ النورسي وابن باديس والسرهندي كما أشرنا من قبل وغيرهم ممن استمسكوا بالمنهج الصحيح، هو أنه من ضرورات النهضة المرتقبة إزالة آثار التغريب وإعادة الأمة الإسلامية إلى عقائدها وشرائعها ونظمها في مجالات الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية والتعليم والثقافة، وأن تحتل مؤلفات علمائنا المجددين مكانتها في مناهج التعليم على كافة المستويات حسب قدرات الطلاب في المراحل الإعدادية والثانوية والجامعات.

---

(١) د/ أحمد عبد الرحمن «البديل الأمريكي للإسلام... دراسة تحليلية مقارنة» (ص:٧) - كتاب الجمهورية - القاهرة - يونيو ٢٠٠٤م.

(٤) الدكتور محمد عبد الله دراز

تمهيد:

أخذت بعض الشخصيات في مصر أكثر من حقها في الدراسة والاهتمام ووضعها في صدر التاريخ الثقافي، أمثال طه حسين والعقاد وأحمد لطفي السيد وسلامة موسى وقاسم أمين وغيرهم على حساب شخصيات أخرى لا تقل شأنًا عن هؤلاء بميزان المواهب والقدرات العقلية والأدبية وتأثيرهم في الوسط الثقافي بمؤلفاتهم الغزيرة وكتابتهم في الصحف والمجلات.

السبب فيما يبدو يرجع إلى العامل السياسي إذ كانت نظريات أغلب آراء الفئة الأولى تخدم السلطة التي يقف وراءها الاستعمار الذي يحرك الأمور من وراء الستار بما يتفق ومصالحه بينما كانت الفئة الثانية في صف المعارضة وكانت الفئة الأولى منحازة في الغالب إلى الثقافة الغربية باستثناءات تظهر في كتابات العبقريات للعقاد، أو على هامش السيرة لطه حسين، وهي وإن كانت تبرز الاهتمامات بالثقافة الإسلامية ولكنها تغرق وسط الركام من الإنتاج الأدبي لهذه الفئة.

أما الفئة الثانية فقد كان ولاؤها للثقافة الإسلامية كتابًا وسنّة وتاريخًا وحضارة، وإن لم تتمكن من احتلال مكان الصدارة كالفئة الأولى، إلا أن أثرها كان قويًا في جماهير الأمة لأنها غذّت تطلعاتها في النهل من معين المصادر الإسلامية واستجابت لملء الفراغ الذي سبّبه إسقاط الخلافة على يد أتاتورك اليهودي، ونزع الإسلام من جذوره سياسيًا وثقافيًا وتشريعًا وقيمًا لإحلال النظم الغربية بدله في التعليم والتربية والسياسية والاقتصاد والتشريع.

وكانت مهمة الفئة الثانية ضخمة، ومسئوليتها جسيمة إذ واجهت قوى مدعمة إعلاميًا وسياسيًا من أهل السلطة وتعرضت لتضييق الخناق والنقد القاسي والإبعاد، وغيرها من أساليب الحصار والنفي حتى لا يصل صوتها إلى الجماهير التي ملأ قلوبها الحنين إلى عقيدتها الإسلامية، وحديثنا الآن عن الدكتور محمد بن عبد الله دراز:

نشأ الدكتور محمد عبد الله دراز نشأة علمية فقد ولد ١٨٩٤م في بيت علم وخلق وورع، فوالده الشيخ الكبير الأستاذ عبد الله دراز من كبار علماء الأزهر المشار إلى تضلعهم العلمي...

وكان الدكتور دراز متقدمًا في امتحاناته السنوية حتى نال شهادة العالمية ١٩١٦م وعُين مدرسًا بالأزهر، ولكن لم تشغله أعباء التدريس عن تعلم اللغة الفرنسية حيث حذقها في ثلاث سنوات، ثم رشحه الأزهر لعضوية البعثة الأزهرية ١٩٣٦ بجامعة السربون وقد تقدم برسالتين للمناقشة: رسالة رئيسية عن الفلسفة الأخلاقية في القرآن وقد ترجمها الدكتور عبد الصبور شاهين رحمه الله تحت عنوان «دستور الأخلاق في القرآن» والرسالة الثانية بعنوان «مدخل إلى القرآن الكريم»[١].

استغرق إعداد هذه الرسالة ست سنوات من حياة عالمنا الجليل الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز، إذ شرع فيها عام ١٩٤١، ويضاف إلى هذه السنوات خمس سنوات قبلها قضاها للتحضير

---

(١) لمزيد من الاطلاع على ترجمة حياته وعرض مؤلفاته يُنظر بحث الدكتور محمد رجب البيومي رحمه الله تعالى بعنوان «محمد عبد الله دراز باحث منهجي متفرد» (ص:٢٣-٤٠) بكتاب بعنوان «الميزان بين السنة البدعة» إعداد وتحقيق الشيخ أحمد مصطفى فضيلة شيخ معهد محلة دياي الأزهري ط. دار القلم - الكويت ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

لدرجة الليسانس ودراسة الفلسفة والمنطق والأخلاق وعلم النفس وعلم الاجتماع على أيدي أساتذة السربون والكوليج دي فرانس، فانعكس أثر هذا التكوين الرصين على رسالته.

وكان قد كتبها وهو في سن النضج في حوالي الخمسين من عمره بعد أن تخرج في الأزهر وعمل به كأستاذ مدة طويلة، وأجاد اللغة الفرنسية، فكان عالمًا كبيرًا يكتب دراسة، لا طالبًا مبتدئًا يتعلم كيف يكتب، فلم يكتف بعرض النظام الأخلاقي القرآني منفردًا، وإنما قارنه بآراء المفكرين والفلاسفة وعلماء الغرب في إطار النظريات السائدة عندهم من جهة، وكذلك بآراء العلماء والأخلاقيين والفقهاء المسلمين من جهة أخرى، وفصّل هذه الآراء وبيّن ما قد يكون فيها من قصور أو خطأ، ثم عقّب ذلك ببسط كمال مبادئ الأخلاق المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في عرض شامل وكامل.

وتمت مناقشة الرسالة أمام لجنة مكونة من خمسة من أساتذة السوربون، والكوليج دي فرانس في ١٩٤٧/١٢/١٥، نال بها المؤلف درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى.

وقد توفي الدكتور محمد عبد الله دراز في يناير ١٩٥٨ رحمه الله رحمة واسعة، وأجزل له العطاء على ما قدّمه لخدمة الإسلام والمسلمين.

وكنا بفضل الله تعالى وعونه قد قدمنا للمختصر الذي كتبه الأستاذ محمد عبد العظيم حيث لخّصنا في المقدمة فصول الكتاب الأم «دستور الخلاق في القرآن»، وها نحن نعرضها هنا بنصها ولكنها لا تُغني عن الرجوع إلى الكتاب الأصلي لمن أراد الاستزادة:

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم لكتاب «المختصر»

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وبعد:

فإن كتاب «دستور الأخلاق في القرآن» للدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله، والذي نضع بين أيدي القراء الكريم مختصره بقلم الأستاذ محمد عبد العظيم علي، يُعدّ من أمهات الكتب في علم الأخلاق، بل الكتاب الأم في الأخلاق الإسلامية لأنه سدّ فراغًا في هذا اللون الخاص من الثقافة الرفيعة سواء في مكتبة علماء الغرب بسبب «صمتهم المطبق عن علم الأخلاق في القرآن أو في المكتبة الإسلامية التي عرفت نوعين من التعاليم الأخلاقية: إما نصائح علمية وإما وصفًا لطبيعة النفس وملكاتها»، إذ قام المؤلف رحمه الله تعالى باستخلاص الشريعة الأخلاقية من القرآن في مجموعه[1].

---

(١) «مختصر مقدمة المؤلف» (ص:١).
وإن قام بعض علمائنا بجهد مشكور لاستكمال هذا النقص ولكنهم لم يطلعوا على رسالة الدكتور دراز -لأنها لم تكن قد ترجمت بعد- نذكر منهم الدكتور محمد يوسف موسى، والدكتور توفيق الطويل، والشيخ نديم الجسر، والشيخ البيصار، والأستاذ أحمد أمين وغيرهم.

ولمع اسم الدكتور دراز في قلب باريس وفي أعرق جامعة بفرنسا فلم تُزِغ بصره أضواء باريس، ولم تفتنه ثقافة أوروبا، فقد عصمته ثقافته الإسلامية بقلعتها الصلبة أن تنفذ إليها السهام، بل إنه -رحمه الله وأجزل مثوبته- قام وحده بغزو ثقافي مضاد للثقافة الأوروبية في عقر دارها.

فقد قدّم باجتهاده الخاص الآيات القرآنية المتصلة بعلم الخلاق في أرقى إطار يتقبله الفكر الغربي بفروعه الثقافية المتنوعة -لاسيما النفس والأخلاق والتربية والاجتماع ولا يسع القارئ بعد استيعاب أدلته والسير مع منطقه الهادئ الرزين الذي يخاطب العقل مقدِّمًا الدليل تلو الدليل- لا يسعه إلا الدهشة المشوبة بالإعجاب... إذ يكتشف إعجازًا للقرآن لم نكن نعرفه من قبل -وهو الإعجاز في مجال علم الأخلاق- فلا نملك إلا الإقرار والاعتراف بأنه حقًا وصدقًا من لدن عليم خبير.

وربما لم يكن المؤلف يدري حينذاك أنه يقدم أيضًا أعظم هدية لأمته الإسلامية -وهي في أشد الحاجة إليها الآن أكثر من أي وقت مضى-

لإنقاذها من الأضاليل التي تبغي سلخها من هويتها ووضعها مع قافلة التبعية الذليلة، باسم ألفاظ جوفاء مزورة كالتنوير وحرية الثقافة والفكر، بينما هي خير أمة أُخرجت للناس إن أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وآمنت بالله!

لقد عاش الدكتور دراز عمره مع القرآن الكريم، واغترف من منابع الثقافة الغربية ما أهله لتوجيه الخطاب إلى العقلية الأوروبية بما تفهمه وتقدره، فقام بتحليل فلسفاتهم الأخلاقية وفضح ثغراتها - لأنها إفراز للذهن البشري الذي جُبل على النقص مهما أوتي من مواهب الذكاء والعبقرية- وها هي مذاهب الفلاسفة تتهاوى واحدًا وراء الآخر أمام النسق الأخلاقي المتكامل للقرآن الكريم الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

ويقصد بالأخلاق بالمفهوم الدارج محاسن الأخلاق والتمييز بينها وبين مساوئها ولكن الأخلاق كعلم -أو فرع من فروع الفلسفة- لها تعريف خاص أوسع مدلولًا وأكثر تشعبًا؛ فإن الأخلاق «علم معياري يدرس ما ينبغي أن يكون عليه السلوك»، وهو بهذا التعريف «أضيق

مجالًا من علم النفس من حيث أنه ينصب على دراسة السلوك الإنساني الذي يصدر عن عقل درّاك وإرادة حرة...»[١].

ونضيف إليه التعريف بالمثل العليا لأنها السماء التي يدور في فلكها علم الأخلاق «فإن المثل العليا في الأخلاق إنسانية أو ينبغي أن تكون إنسانية عامة لا يحدها زمان ولا مكان، ومطلقة غير مشروطة بنتائجها وآثارها»[٢].

وقد تأرجحت أشهر المذاهب في العصر الحديث بين النفعية اللذية «مل بانجلترا» والعملية البرجماتية «وليم جيمس بأمريكا»، وبين المثالية كأخلاق الضمير «باطلر» وأخلاق الواجب «كانت»، وغيرها من المذاهب المتطاحنة، فصورها جوستاف لوبون «بالفوضى العميقة» ناقلًا وصف مونتييه «وإليك أيضًا الأخلاق التلذاذية

---

(١) من مقدمة «المجمل في تاريخ الأخلاق» (ص:٢١) سدجويك بقلم د/ توفيق الطويل - دار نشر الثقافة بالإسكندرية سنة ١٩٤٩م.

(٢) المصدر السابق (ص:٣٥) وشذ عن هذا التعريف المذهب الاجتماعي من وضع دور كايم وأوجست كونت إذ هبطا بقيم الأخلاق العليا المطلقة، وزعما أنها مجرد «عادات اجتماعية» واطلقا على علم الأخلاق «علم العادات الاجتماعية».

والأخلاق النفعية.. وإليك.. وإليك فالحق هو ضوضاء أدمغة»[١].

وهنا يتضح للدارس المستوعب لآراء الدكتور دراز أنه تفوق على أقرانه من العلماء والفلاسفة فإن كان علم وظائف الأعضاء والتشريح يُعني بالبدن، فإن علم الأخلاق -وفق نظرة عالمنا الكبير- قد وسع دائرته وطوع قضاياه ووصفها في مجموعة متماسكة تشمل تشريح العقل والقلب والنفس والإرادة الإنسانية، جاعلًا من معرفتنا بها أدوات ضرورية لتنمية قدراتنا للسيطرة الواعية على سلوكنا ومقاومة الانسياب التلقائي لصدى الأحداث والتجارب والابتلاءات التي نمر بها طوال حياتنا!

وإلا فتأمل معي بعض كلماته وهو يكتب بحرارة «..أعكف على الفضائل بدافع من رغبتي في اكتساب الصفات النفسية المتينة، نقاء قلبي ونور عقلي وقوة إرادتي..»[٢].

ولعل من أبز الحقائق التي أراد المؤلف منا أن نعيها معه لنفيد

(١) «حياة الحقائق» جوستاف لوبون (ص:١٠٨).
(٢) انظر الفصل الرابع «النية والدوافع».

منها، إن القرآن الكريم يوجه خطابه إلى الإنسان الحي الواقعي بفضائله ورذائله، بقوته وضعفه، محيطًا بكل ما يكتنف حياته من صعاب وعراقيل تعوقه عن تحقيق الحياة الفاضلة، وفي مقدمتها الصراع بين هواتف الشيطان ونوازع النفس الأمّارة بالسوء، وبين الروح العلوية التي نفخت فيه فجعلته يتطلع إلى الارتقاء الروحي والسمو الأخلاقي، وكأنه يود التخلص من الهيكل الجسماني الذي يحبسه عن الانطلاق وراء اللانهائي.

وبحسب تعريفه عن الإنسان -ككائن أخلاقي- «كما أنه ناقص فهو في نفس الوقت قابل لاكتساب الكمال عن طريق الجهد الوارد في تعريف الإيمان ذاته بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥]، ويتابع فكرة التدرج في التقديرات الأخلاقية في القرآن الكريم بدءًا من طلب فعل «الخير» دون زيادة إلى الترقي لبلوغ مستوى الكمال إلى ما لا نهاية.. متمثلًا في التضحية بكل شيء نفيس -حتى النفس- من أجل القيمة العليا الأغلى من

الحياة حيث حققه الصحابة -كأول تطبيق في حياة الأمة- في موقعة بدر الكبرى.

كذلك نجد الحل لمشكلاتنا الحالية المعقدة وفي بؤرتها -الأزمة الخلقية- نجده في نداء الدكتور دراز منذ نحو نصف قرن؛ إذ يبرهن عن توافق الأعمال مع الشرع، ومؤكدًا أن الأخلاق هي روح الشريعة التي من دواعي الفخر بها أنها تقيم مجتمعًا سعيدًا وقويًا ومتضامنًا، فالإسلام وسط اعتدال بين شريعة الخوف وشريعة الحب.

وما أبرعه عندما يدمج بوعي وعلم قائم على البرهان يدمج شرط «الأخلاقية» بالإيمان، ويعرّفه بأن «يقبل المرء مختارًا جميع أوامر الشريعة بخضوع وبلا تردد» [النساء:٦٥][1].

ثم يكتب هذا التوجيه الذي يستحق بان يُكتب بأحرف من نور «وخلاصة القول فإن فكرة طاعة الله ﷻ لا تخلو من الاعتقاد بأن أوامره هي أحكم الوسائل لتحقيق أعظم الخير للإنسانية وللكون كله».

---

(١) انظر الفصل الرابع «النية والدوافع».

هذا هو التقويم الأوّلي للكتاب حاولت فيه جاهدًا الالتزام بالموضوعية، ثم طغى علي الانفعال الوجداني الشخصي فأحببت إضافته أيضًا استكمالًا للتعريف بالكتاب؛ لأنه يتضمن جاذبية خاصة كالمغناطيس، تشدك إليه، وتغمرك عند قراءته دوافع قوية للعمل بإرشاداته المخلصة.

لا تفسير لهذه الجاذبية إلا روح الإيمان والإخلاص لمؤلّفه الذي يرسم لك لوحات جميلة بفصول الكتاب -بالنص والعقل والعاطفة- بما يُمتعك فتنقاد معه برفق إلى الروح الشفافة لإنسان عاشق للحق والخير والعدل، ويريدها لبني آدم جميعًا.

اللّهم اجزه عن الإسلام والمسلمين والإنسانية خير الجزاء.

***

يعرض في الفصل الأول -الإلزام- أن القرآن يتوجه إلى النفس الإنسانية بأكملها، ويقدم إليها غذاءً كاملًا يستمد منه العقل والقلب نصيبًا متساويًا؛ إذ أن التمييز بين الخير والشر إلهام داخلي مركوز في النفس الإنسانية.

وحدّد منهجه بعرض نظريات المدارس الإسلامية المشهورة، وقارن نظام الأخلاق في القرآن ببعض النظريات الغربية، إذ يحثّنا القرآن الكريم على أن نوجه أنظارنا إلى السماء، ونحن نستند على قواعد صلبة من الواقع، وهكذا يلتقي طرفا الخيط: صعودًا نحو المثل الأعلى وحفاظًا على الفطرة، خضوع للقانون وحرية للذات، علمًا بأن الإنسان مركب من علاقات متعددة -منها الحيوية والأسرية والاجتماعية والإنسانية والربانية- وهي مؤهلة للتقدم بغير إهمال إحداها على حساب الأخرى.

ولعل أهم ما يلفت إليه النظر في هذا الفصل أن القرآن الكريم يعني عناية فائقة بربط كل تعاليمه بالقيمة الأخلاقية التي يتأسس عليها.

الفصل الثاني: عن المسئولية:

قسم المسئولية إلى ثلاثة أقسام: المسئولية الدينية، والمسئولية الاجتماعية، والمسئولية الأخلاقية الخالصة، ذكرها القرآن في آية واحدة بنفس الترتيب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ

وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٢٧].

وبعد استبعاد القرآن الكريم لخطيئة آدم عليه السلام يقرر المسئولية الفردية لكل إنسان مستبعدًا كل مسئولية موروثة أو اجتماعية بمعناها الحقيقي، وبعد مناقشاتٍ مستفيضة لدعاة الحتمية، ومعارضيهم في الفلسفة الغربية منتقلًا إلى بحث قضية القضاء والقدر بين المعتزلة وأهل السنة والجماعة، يبين كيف حسم القرآن الكريم القضية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، مفسرًا هذه الآية بأن الله تعالى لا يفعل ذلك بمبادرة منه، وإنما يجريه كإجراء مقابل، وردّ على شيء من جانبنا.

الفصل الثالث: عن الجزاء:

يقسم أنواع الجزاءات إلى أخلاقي وقانوني وإلهي، ويقصد بالجزاء الأخلاقي تحقيق الشعور الداخلي بالمتعة أو الألم بشرط تدخل الجهد، ويقدم التوبة أولًا ويبين ثراءها في الإسلام إذ أن التوبة من خصائص الأخلاق الإسلامية، لا تعرفها المذاهب الأخلاقية الأخرى -حتى المثالية منها- فيعرّفها الدكتور دراز بأنها واجب جديد -فوق مستوى الندم- يفرضه علينا الشرع عن أي تقصير في

الواجب.. ووظيفة التوبة وظيفة إصلاحية لمستقبل أفضل.. مع تكرار جهودنا بلا يأس -من أجل الإصلاح.. مشبهًا الشرع بسلم درجاته على الأرض، يعد من يريدون الصعود أن يرفعهم إلى السماء.

وبعد بيان محاسن الفضيلة وقبح الرذيلة، يشرح تفاصيل النظام العقابي في التشريع الإسلامي الذي يميز بين طبقتين مختلفتين «الحدود» التي حددها الشرع بدقة وصرامة، و«التعزيرات» التي تركها لتقدير القاضي.

ويحسم المؤلف قضية ما يسميه بالضمير الأوروبي الذي ينزعج من إجراءات النظام العقابي في التشريع الإسلامي لعلاج الاضطراب في سلوك الإنسان، مبينًا أن الأمة الإسلامية لم تكن تنقصها الرأفة والرحمة الإنسانية، ولكنها كانت تتجاوزهما بروح النظام والطاعة لحكم الله تعالى.. مدعمًا رأيه بإحصائيات الجرائم ومبينًا آثار تطبيق الشريعة وآثار القانون الوضعي التي تثبت أن القسوة في حقيقتها هي قسوة نظرية، فمن الناحية العملية كلما كانت العقوبة أشد، كلما قلت فرص تطبيقها، والعكس صحيح.. فالحقيقة أنه -ليس الشرع- وإنما هو الفرد في نهاية الأمر هو الذي يكون

قاسيًا على نفسه ومفرطًا في حق إنسانيته.

ويمضي المؤلف مع آيات القرآن الحكيم ليعرضها بمنهج إحصائي مذهل - يعكس مدى ما كابده من عناء «قبل ظهور الكمبيوتر»- ويبوبها بطريقة مبتكرة ليجمع الآيات القرآنية الشاملة للوصايا الإيجابية والمحاسن الأخلاقية والفضائل والمحرمات.. والجزاء الإلهي في الحياة العاجلة وفي الحياة الآخرة للعقوبات المعنوية والمادية.. وهو حصر غير مسبوق، لم يترك شاردة أو واردة إلا سجّلها فيستخلص منها المعنى ويضعه في الصدارة فيلفتك إلى لون من التفسير المؤثر الذي ينفذ إلى القلب والوجدان ويُعدُّ من جوامع الكلم وذلك بعد عرض موضوعي العقوبات والجوائز في «الكتاب المقدس»، ويوضح للقارئ كيف أن النظرية اليهودية ونقيضها النظرية المسيحية تتصالحان داخل دعوة القرآن في توافق وانسجام..

ويطالب في النهاية المربي الناجح أن يلجأ إلى أسلوب القرآن الكريم الذي يذكّرنا دائمًا بالنتائج الطبيعية المترتبة على سلوكنا.. ناقدًا الأخلاق العلمانية.. ومفضلًا -بناء على الدراسة الإحصائية التحليلية- الأخلاق القرآنية التي تتجاوزها بشكل قاطع.. ويغلق

باب الجدل أمام الأخلاق العلمانية.

الفصل الرابع: النية والدوافع:

بعد عرض عميق ومتابعة دقيقة، يحثنا على التنقيب داخل أنفسنا مع مداومة الحرص على تصحيح النية والسلوك معًا، مع إعطاء القيمة للنية، ويحسم الأمر بقوله: إن النية خير، والعمل القائم على النية الحسنة خير أكبر؛ لأنه العمل الأخلاقي المتكامل.

كما ناقش النظام الأخلاقي العقلاني -مثل أخلاق قدماء الإغريق والرواقيين و«كانت» في العصر الحديث- باعتباره ممثلًا للاتجاه المتشدد في الأخلاق العقلانية؛ لأنه يرى في الواجب قانونًا شكليًا للعقل.. والإنسان العقلاني يخضع للحكم من حيث طابعه الآمر فقط.. أما الذي يطيع الأمر وهو مدرك تمام عدله ومعقوليته، فإنه يشعر تجاه الشرع بقدر عظيم من الإعجاب والاحترام معًا، ثم يصدر حكمه على «كانت» بأنه قلد وجهة نظر الأخلاق الدينية بعد أن جردها من مادتها الحيوية.

ثم عرض آراء الأخلاقيين الإسلاميين، وضرب الأمثلة التي تتباين فيها القيمة الأخلاقية تباين الليل والنهار واستخلص حقيقة

الأخلاق الإسلامية.. وأوضح أنها لا تستهدف فقط إقامة العدالة في الدنيا، وإنما كذلك سمو أشخاصنا.. والارتفاع بها فوق المنافع الأرضية والحياة الحيوانية.. وأن الغاية العامة المقصودة من الشرع الإسلامي هي صحة النفس.. فإن تقوى الله تعالى تتركز حولها تقريبًا جميع الأحكام القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.

***

الفصل الخامس: الجهد:

يوضح المؤلف أن القرآن الكريم يرشدنا أن الإنسان كائن أخلاقي ناقص ولكنه -عن طريق العمل- قابل لاكتساب الكمال، ويعرف المؤلف العمل بأنه جهاد بقوة وإصرار.

وقد التقط المؤلف كلماته «الجهد والجهاد» من القرآن الكريم مقترنة بالأمر الإلهي في الآيات الآمرة بالعمل «الفعال» مصورًا ما يكابده الإنسان في الحياة متحملًا المسئولية لتحقيق ما أسماه «الإبداع الخيِّر» أي أن يبدع أعمال الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلًا..

ومهما قابله من عقبات، كما أنه ميّز بين جهد المدافعة التي يعارض بها الميول السيئة، وجهد الإبداع عملًا بالآيات القرآنية

المعنية بهذا الواجب العام.. باستخدام الفعل «اعملوا» بدون مفعول لاستثارة همتنا بلا تحديد.

***

أما فيما يتعلق بالقسم العملي من الكتاب وهو «دستور الخلاق العملية في القرآن الكريم» والملحق بنهاية هذا المجلد، فقد اتبع فيه المؤلف رحمه الله منهج تبويب الآيات لا حسب ترتيب السور في القرآن وإنما بمنهج تركيبي، وكان غرضه هنا هو إبراز إعجاز النظام الأخلاقي في أنه يغطي نشاط الإنسان كله -فردًا كان أم أسرة أم جماعة أم دولة، حيث يجد المسلم ما يشبع حاجته في مجال الأخلاق العملية.

ونرى من حق الأستاذ محمد عبد العظيم علي علينا التنويه بالدور الذي قام به في تلخيص هذا السفر الضخم، وقد عرفته عندما ترجم كتاب المستشرق هنري لاووست «نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع»، كما أنه له باع طويل وخبرة عميقة اكتسبها من قيامه بترجمة عدة كتب قيّمة من الفرنسية إلى العربية، وقد مكّنته تجاربه في الترجمة من الوقوف على المصطلحات والمفردات الفلسفية والأخلاقية.. فضلًا عما يتميز به كباحث صبور جلد على العمل

العلمي الدائم ابتغاء مرضاة الله، فوفق إلى نقل أصل الكتاب من أرفف مكتبات المتخصصين في الدراسات الفلسفية والأخلاقية إلى عامة القراء، وحوله باختصاره الواعي إلى دليل عملي إرشادي لكل مسلم.. ليجاهد نفسه كسبًا للفضائل، وتقوية للإرادة.. ليسلك بها أفضل المسالك طاعة لله ﷻ.

ولولا الحرص على الأمانة العلمية بالاحتفاظ بالعنوان الأصلي للكتاب؛ لاقترحت عليه تعديل اسم الكتاب ليصبح «كيف تقتحم العقبة وتكتسب الفضائل الأخلاقية»؟

وسنعرض بالصفحات التالية للمنهج المبتكر للدكتور دراز في بحثه عن نشأة العقيدة الدينية بكتابه المتميز «الدين»، مع بيان ما قام به من جهد لإماطة اللثام عن وجه جديد من أوجه إعجاز القرآن الكريم.

كيف نشأت العقيدة الدينية ؟

اتفق العلماء إذن على أن ظاهرة التدين أصيلة في النفس البشرية ولكنهم اختلفوا في الإجابة على السؤال الآتي: ما هي عوامل إيقاظها في النفس؟ وهنا ظهرت وجهات النظر المختلفة التي تجيب على هذا السؤال: أجملها الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله في ستة مناهج سنوجزها في الصفحات التالية، مع حرصنا على توجيه نظر الباحثين بخاصة والقراء بعامة إلى ضرورة الرجوع إلى الأصل -أي كتاب «الدين» له؛ لأنه يُعد من أفضل -بل ربما أفضل- ما كتب في العالم العربي في العصر الحديث عن الدين ومناهج بحث نشأته، كما أن الدكتور دراز لفت نظرنا -ربما لأول مرة أيضًا- إلى وجه جديد من أوجه إعجاز القرآن الكريم حيث يثبت أن القرآن جمع بين هذه المناهج جميعًا، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣].

١- المذاهب الكونية والطبيعية: المادية والشاذة العنيفة:

يرى فريق من العلماء -ومنهم العالم الألماني ميلر- أن العامل

الأول في إثارة الفكرة الدينية هو النظر في مشاهد الطبيعة لاسيما الأفلاك والعناصر ذلك أن التأمل في هذا المجال غير المتناهي يجعل الإنسان يشعر بأنه محوط من كل جانب بقوة ساحقة غلابة، قوة مستقلة عن إرادة البشر يخضع الجميع لتأثيرها، فينتقل الفكر من الكائن إلى المكوّن إذ الإعجاب ببدائع الملكوت يحمل الإنسان بفطرته إلى التساؤل عن المبدع ويحفّزه إلى التوجه بفكرته إليه، فيتحول إلى مناجاة مبدعه والإفضاء إليه بعبارات التبجيل العميق، والتقديس البليغ- أي العبادة-، وهذه المناجاة تنطوي على عنصرين:

١- أن الشيء الذي تتوجه إليه أهل لأن يستقبل حديث من يناجيه.

٢- أنه أسمى مقامًا وأكمل صفة من الإنسان لأنه يستطيع ما لا يستطيع الإنسان[1].

ولكن يُعترض على هذه النظرية بأن استمرار الظواهر الكونية على نسق واحد يجعلها أمرًا مألوفًا، فظهر من العلماء من يرى أن إيقاظ التأمل في النفس يرجع إلى أن الحوادث الأرضية المفاجئة

(١) د. دراز «الدين» (ص:١٤).

والعوارض السماوية النادرة كالبرق والرعد والعواصف والصواعق والخسوف والطوفان والزلازل هذه الحوادث لها تأثيرها على المشاعر كتأثير دق الجرس، في تنبيه الغافل وإيقاظ الوسنان، فتحفز بني آدم إلى السؤال عن مصدرها، وإذا كان لا يرى سببًا ظاهرًا اضطر عقليًا أن ينسبها إلى سبب خفي ذي قوة هائلة.

هذا هو رأي العالم الإنجليزي «جيفونس» إذ يعلل التدين بشعور الرهبة والخشية لأنه أسبق في النفس من شعور الإعجاب.

ولكن العالم الفرنسي «ساباتيه» يرى أن شعور الرهبة والخوف من القوة العلوية لا يكفي وحده لتفسير الفكرة الدينية، ذلك أن الخوف إذا استأثر بالنفس سحق الإرادة وشل الحركة وولد اليأس فلابد من شعور آخر يوازنه ويلطفه من حدثه وهو الأمل والرجاء الذين يبعثان على الدعاء والتضرع وهذه هي حقيقة الدين[١].

٢- المذاهب الروحية أو الحيوية:

ويقصد بالروح الخاصة الإنسانية بكيان مستقل عن الروح

---

(١) المصدر السابق (ص: ١٢٥).

المشترك بين الإنسان والحيوان.

إن مبدأ الحياة التفكير والإرادة المنظمة والعاطفة والضمير، والدليل على ذلك أننا نرى النائم والمغمى عليه والمصروع يتنفسون ويتغذون ويمشون فهم أحياء بالحياة الحيوانية ليس غير، حتى تعود إليهم تلك القوة الخاصة فيعود إليهم شعورهم المنظم، المذهب الروحي إذن بعكس المذهب الطبيعي، فبدلًا من استنتاج الكائن الغيبي من مطابقة الآثار العظمى في عالم المادة، يشتق المذهب الروحي صفاءه من جنس عمل نفسه، ومن نوع التجارب التي دلت عليه فهو لا ريب روح عظيم ذلك الذي يصنع الأسرار والعجائب الروحية، وهو لا شك عقل خلاق، ذلك الذي يمد العقول بمزيد من النور أو يكف عن إمدادها[١].

٣- المذاهب النفسية:

يستمد أصحاب هذه المذاهب من التجارب في حياة الإنسان

---

(١) المصدر السابق (ص: ١٣١).

العادية المألوفة له دليلًا على أنها توجه النظر إلى الحقيقة العليا، فيحلل «ساباتيه» شعور الطفل بما فيه من مناقضة جوهرية بين حساسيته وإرادته، وتنتهي التجارب النفسية إلى أن تصبح النفس مدرِكة ومُدْركة وحاكمة ومحكومًا معًا، وتفسير هذه التجارب ونتائجها أن رغبة العلم تنتهي بالاعتراف بالجهل، ورغبة الاستمتاع تنتهي بالتقزز والإسراف في طلب السعادة، يذهب براحة الطمأنينة كأنها تحمل في نفسها جرثومة فنائها، فأين المفر؟

العلم ليس سبيلًا للسعادة في الصراع بين قانوني الطبيعة والأخلاق فكيف السبيل من الخروج من هذا المأزق؟ لا مفر من اتخاذ الدين سبيلًا لحل هذه الأزمة ولكن «برجسون» يستخلص من الشعور بالواجبات الاجتماعية نشأة العقيدة الإلهية إذ لما كان نظام المجتمع وتماسكه يتطلب من الفرد انخلاعه عن بعض رغباته وتضحيته بجانب من حريته، كان لابد من قوة أخرى دافعة لهذه التضحيات أي العقيدة الدينية كذلك فإن الحياة اليومية والحوادث المستقبلة مليئة بالنماذج المعبرة عن تطلع النفس البشرية إلى من يحقق أملها، فالتاجر الآمل في

الربح والمريض المنتظر الشفاء والزارع الدائب العمل في حقله مؤملًا الحصاد، وكل ذي حاجة يسعى لإشباعها، كل هؤلاء لهم آمال يبعثها تصوراتهم أمام النفس إرادة خفية يركن إليها القلب ويعتمد عليها، تلك هي إرادة الله «الإله المستعان».

أما «ديكارت» فإن أحد الطرق عنده في إثبات وجود الله تعالى مستمدة من فكرة الكمال إذ إنها أسبق في الفطرة من فكرة النقص؛ فإن من لا يعرف الشيء لا يفتقده فيقول: «إذن كيف أعرف أنني ناقص لو لم تكن عندي فكرة كائن كامل أكمل مني؟».

٤- المذهب الأخلاقي:

وصاحب هذا المذهب هو الفيلسوف الألماني «كانط» وله دعائمه في إثبات صحة ما يذهب إليه، ومنها أن كل إنسان -حتى الطفل المميّز- يجد في نفسه استحسانًا لبعض الأفعال واستهجانًا لبعضها ويدرك بنفسه أن بعضها يجب أن يفعل وبعضها يجب أن يجتنب، وهذا هو أقصر الطرق -في رأي الدكتور دراز- لشرح مذهبه إذ يمكن عند سرد هذا المثال الانتقال مباشرة من القانون الأخلاقي المجمل الذي نخضع له إلى

واضع هذا القانون وغارسه في النفوس[١].

ولكانط تفسيرات أخرى نضرب صفحًا عنها لبعدها عن غرضنا في التبسيط والإيجاز.

٥- المذهب الاجتماعي:

وينسب إلى «دور كايم» الذي يرى أن التدين وليد أسباب اجتماعية ويعلل ذلك لأن خير وسيلة لتفسير ظاهرة معقدة كالظاهرة الدينية أن تدرس في بداية نشاطها قبل أن تخالطها عناصر غريبة عنها، وأن ذلك إنما يكون ببيئات الأمم البدائية وهي في نظره تلك الأمم التي لا تتميز فيها الأسر الخاصة بخاصة مستقلة، بل تقوم على نظام القبائل والفصائل والعشائر.

واستخلص دور كايم من اجتماعات القبائل واحتفالاتهم دليلًا لمذهبهم، إذ رأى أن من طبيعة الاجتماعات أن تنسلخ النفوس فيها عن مشخصاتها الفردية وتنمحي كلها في شخصية واحدة هي

---

(١) كتاب «الدين» (ص:١٤٦).

شخصية الجماعة.

وهكذا يكون الاجتماع هو مبدأ التدين وغايته وتكون الجماعة إنما تعبد نفسها من حيث لا تشعر[١].

ولا يسلم هذا المذهب من انتقادات عديدة تأتي عليه وتنقضه من أساسه منها:

١- أن تحديد الدين بهذه الطريقة «أي دراسة الظاهرة الدينية في أقدم عصورها يعد عملًا مجافيًا لقانون المنطق السليم إذ لا يحق لنا أن نحدد حقيقة الإنسانية من النظر في أول أطوار الجنين.

٢- تقوم بعض الأدلة الأثرية والتاريخية على عكس افتراضه، فالآثار الباقية من عهد القبائل الآرية والسامية يثبت منها أنها كانت قائمة على النظام الأسري.

٣- كذلك قام أحد الباحثين «روبرت شمت» بدراسة دقيقة في استراليا فأثبت أن قبائل استراليا الوسطى احدث القبائل هناك

---

(١) المصدر السابق (ص:١٥٣).

وأكثرها تقدمًا عندهم عقيدة «الإله الأعلى».

٤- يعترف كونت بان عددًا من قبائل استراليا قد وصلوا إلى فكرة «الإله الأعلى» أو «الإله الأوحد» وأنه كائن أزلي أبدي، تسير الشمس والقمر والنجوم بأمره، وأنه هو الذي يثير البرق ويرسل الصواعق وإليه يتوجه في الاستسقاء وفي طلب الصحو وهو الذي خلق الحيوان والنبات وصنع الإنسان من طين ونفخ فيه من الروح، هو الذي علم الإنسان البيان وآلية الصناعات وشرع له العبادات وهو الذي يقضي في الناس بعد الموت فيميز بين المحسن والمسيء، ولكنه يعمد إلى تجاهل ذلك ويعمد إلى ضرب من اللهو الخليع الذي يأتيه بعض القبائل في حفلات تضم كل شيء إلا الدين والعبادة.

٦- المذهب التعليمي أو مذهب الوحي:

وهذا المذهب يقرر أن الأديان لم يسر إليها الإنسان، بل سارت هي إليه وأن الناس لم يعرفوا ربهم بنور العقل بل بنور الوحي.

هذه النظرية التي أخذت بها طوال القرون الوسطى أوروبا

وأيدها بعض علماء التاريخ حتى القرن التاسع عشر لاتزال هي المذهب السائد عند كبار رجال الدين عندهم، كما أننا نجد في الكتب السماوية مصدرًا في الجانب الإيجابي منها[١].

من هذه النظرة الجامعة لمناهج العلماء في بحث منشأ العقيدة الإلهية يستنتج الدكتور محمد عبد الله دراز أن «مطلب الألوهية مطلب توافرت عليه الفلسفات والنبوات، وأن دلائله البرهانية ماثلة في الأنفس والآفاق، وأن بواعثه النفسية مركوزة في الوجدانات غير أن الناس ليسوا على درجة واحدة من سرعة الاقتناع بكل هذه الدلائل»، ومع اختلاف الناس في وسائل الاقتناع، تنوعت في القرآن وسائل الدعوة إلى الله.

وها هي النماذج القرآنية على الترتيب:

ففي المنهج الطبيعي مثل قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق:٦-٧]، وقوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾

(١) كتاب «الدين» (ص:١٥٧).

[الأنعام:٩٦]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ [القصص:٧١]، ويلفت القرآن الأنظار إلى عنصر الاختلاف بين المتشابهات اختلافًا لم يتهيأ للعلم البشري معرفة أسبابه ولا التحكم في عوامله مع اتخاذ البيئة والعوامل الطبيعية الظاهرة فينبه على موضوع العبرة في مثل قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد:٤]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم:٢٢].

كما ينبه القرآن -في الشق الثاني من المنهج الطبيعي- إلى الحوادث المروعة في قوله ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد:١٣]، ويضيف إلى ذلك الإنذار بالأحداث المتوقعة أو المحتملة فيقول: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨].

ونرى عناصر المنهج الروحي مبثوثة أيضًا في كثير من الآي لبيان

استقلال الروح البشري وانفصاله عن الجسم وبقائه بعد الموت في حالة برزخية بين الدنيا والآخرة في مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام:٦٠]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢]، وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

ويشير القرآن إلى ما لاحظناه في المذاهب النفسية من حيث قصور الإرادات الإنسانية عن بلوغ أهدافها وإلى عجز الإنسان أمام المقادير العليا وضرورة استسلامه لها في قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم:٢٤-٢٥]، كما يضيف القرآن عنصرًا آخر عظيم الدلالة على الألوهية وهو تحول الإرادات وتحولها من الكراهية إلى المحبة وعد ولها إلى الألفة من غير تدخل الأسباب الطبيعية في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:٢٦]، ويجمع الله تعالى ذلك قوله سبحانه:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال:٢٤].

حتى المذهب الأخلاقي نجد لبّه وجوهره في القرآن حيث يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:٧-٨].

بل المذهب الاجتماعي نفسه إذا عدنا إلى أساسه الصحيح وهو تقرير ما للبيئة والوراثة من سلطان بليغ على الأفراد فنجد القرآن يسجله في مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة:١٧٠]، و﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]، إلا أن تقرير ذلك جاء في موضع الذم، والتقريع فينفي هبوط الإنسان عن عرش كرامته الإنسانية وهبوطه إلى مستوى القطعان من الماشية ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

ونراه يهيب بالناس أن يميزوا بين الطيب والخبيث ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٧-١٨].

ويرسم القرآن الحكيم طريق تحرير العقول من الأسر الاجتماعي

القاهر بالدعوة إلى التفكير الفردي الهادئ المتحرر من كل القيود إلا قيد البداهة والمنطق السليم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ:٤٦].

وأخيرًا؛ ترى المذهب التعليمي ساريًا في القرآن كله مع التوجه المستمر إلى الآيات الواضحة، بالإضافة إلى إرسال الرسل ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، و﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، هكذا يلتقي في محيط القرآن ما تشعب عند العلماء، وإزاء هذا كله لا يسع الباحث المنصف إلا الإقرار بأن القرآن ليس صورة لنفسية ولا مرآة لعقلية شعب ولا سجلًا لتاريخ عصر وإنما هو كتاب الإنسانية المفتوح مهما تباعدت الأقطار والعصور أو تعددت الأجناس واللغات والألوان إذ سيجد فيه كل طالب للحق سبيلًا مهمًا يهديه إلى الله على بصيرة وبينة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧][1].

---

(١) ينظر كتاب «الدين» للدكتور محمد عبد الله دراز.

بل إن مثل هذه الدراسة المقارنة التي تفرد بها الدكتور محمد عبد الله دراز -رحمه الله تعالى وجزاه عن المسلمين خير الجزاء- لدليل جديد تفرد بإبرازه بعد دراسته العميقة المقارنة، نقول: إنه دليل جديد يضاف إلى غيره من الأدلة على إعجاز القرآن، وأنه كلام الله ﷻ.

يقول الدكتور السيد البدوي: «ولا شك أن أي باحث في الأخلاق الإسلامية لابد له من الاستناد إلى كتب ومقالات الدكتور محمد عبد الله دراز -رحمه الله تعالى- لأن هذا العالم الجليل قد استكمل وسائل البحث التي أهلته للخوض في ميدان علم الأخلاق بتكوينه الإسلامي الأصيل أولًا، ثم إتقانه للغة الفرنسية واستيعابه للثقافة الفلسفية العربية القديمة والحديثة ثانيًا، فحصل على درجة الدكتوراه من فرنسا على رسالته بعنوان «دستور الأخلاق في القرآن الكريم – دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن»[1].

(١) اعتمدنا كثيرًا على كتبه وأهمها الكتاب الفريد في بابه «دستور الأخلاق في القرآن.. دراسة مقارنة للخلاق النظرية في القرآن» ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين، ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوي – دار البحوث العلمية – الكويت ومؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

وقد وفق وبرع في الإحاطة بالقانون الأخلاقي في القرآن الكريم بمنهج جديد لم يسبقه إليه أحد فيما أعلم[(١)].

وسنبدأ بعرض موجز لبحثه المبتكر الذي يبين فيه معالم القانون الأخلاقي في القرآن الحكيم.

معالم القانون الأخلاقي في القرآن الكريم:

حفظ القرآن القانون الأخلاقي الذي جاء به موسى عليه السلام، ولكن القانون لم يأت على كل شكل كتلة واحدة كالوصايا العشر، ولكنه ورد كآياتٍ متفرقة في عددٍ من السور[(٢)].

وقد عقد الدكتور دراز مقارنة بين الوصايا العشر كما جاءت بكلٍّ من التوراة والقرآن:

---

(١) تقع الترجمة العربية في ٧٧٨ صفحة.

(٢) «مدخل إلى القرآن الكريم» د. دراز (ص:٩٢) دار القرآن الكريم ودار القلم الكويت ١٣٩٢هـ - ١٩٧١م - ترجمة محمد عبد العظيم - مراجعة د. سيد بدوي.

	التوراة	القرآن الكريم
العبادة	سفر الخروج الفصل العشرين لا يكن لك آلهة أخرى أمامي	﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]
	لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة	﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج:٣٠]
	لا تنطق باسم الرب إلهك باطلًا	﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٤]
الوالدان	أكرم أباك وأمك	﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]
القتل	لا تقتل	﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]
الزنا	لا تزنِ	﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١]
السرقة	لا تسرق	﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]

	التوراة	القرآن الكريم
الزور	لا تشهد على قريبك شهادة الزور	﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج:٣٠]
القناعة	لا تشته بيت قريبك ولا شيئًا مما لقريبك	﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء:٣٢]

وهكذا يتبين أن أسس القانون الأخلاقي ظلت محفوظة بالقرآن، إذ جاء عيسى عليه السلام فقال عن هذا القانون: «وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيمًا في ملكوت السماوات»[(١)].

كما أعلن عليه السلام أنه لم يأت ليلغي وينسخ وإنما ليكمل قال: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء كذا، وأما أنا فأقول لكم كذا»، وكان يقصد أنه كان يوالي من بعدهم مهمة التطهير الأخلاقي التي بدأها المرسلون من قبله، والتي كانت تنتج مجالًا للتقدم والرقي»[(٢)].

ولو مضينا مع المرحوم الدكتور دراز لتتبع الوعظ الإنجيلي حيث أثبت أن هذه المبادئ قد عززها كتاب الإسلام لاحتجنا إلى

(١) «مدخل إلى القرآن الكريم» د. دراز (ص:٩٣-٩٤).
(٢) المصدر السابق (ص:٩٩).

مبحث كامل، يقول تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨].

ولكننا سنكتفي بإشارة إلى بعض النماذج:

	الإنجيل	القرآن الكريم
	طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض (متى ٥:٥)	﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]
القلب	طوبى للأنقياء القلب (٥:٨)	﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٩]
النجوى	طوبى لصانعي السلام (٥:٩)	﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:١١٤]
الاشتهاء	قد سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تزن، وأما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه (متى ٢٧-٢٩)	﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١]

سؤال الله ﷻ	اسألوا تعطوا (متى ٧: ٧)	﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]
	احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتوكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة (متى ٧: ١٥)	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٦]

وهكذا يثبت أن القرآن يوضح أعمال الرسل ويؤيد شرائعهم، ويوحد مختلف الاتجاهات في إطار قانون أخلاقي واحد «فكم هو جميل أن نرى كتابًا أخلاقيًا قد جمع بين دفتيه حكمة الأولين، فضلًا عن أنه قدم في وقت واحد وبهدف واحد عديدًا من الدروس»[1].

(١) المصدر السابق (ص:١٠٥).

وكنا قد أوضحنا من قبل ضرورة توثيق الصلة بين الأخلاق والدين، والحديث عن الدين يستحثنا هنا لدراسة نظرة الإسلام إلى الفضيلة وكيف حددها القرآن بمعيار دقيق.

وقبل تناول تفاصيل الإضافات الجديدة في الإسلام؛ فإنه ينبغي بحث كيف حدد القرآن الحكيم الفضيلة بالنظر إلى مستويات السلوك الإنساني.

الفضيلة في القرآن:

نقد ابن تيمية فكرة الفضيلة في فلسفة أرسطو الأخلاقية بسبب أنها اعتبارية ولا يجمعها حد جامع واضح يميز تمييزًا دقيقًا بين طرفي التفريط والإفراط.

وفي العصر الحديث أدى نظر الدكتور دراز للآيات القرآنية إلى أنه استخلص منها تعريفًا منضبطًا للفضيلة بالنظر إلى المستويات الإنسانية منها، فإن طرق الناس في سلوكهم لا يتعدي صدورها عن إحدى النزعات الثلاث الآتية:

إما نزعة الاستئثار، وإما الإيثار، وإما نزعة المبادلة والمعادلة.

ويرى الدكتور دراز أن البيان القرآني أفاض في ذم سجية الأثرة والبغي والعلو، بينما وزع القيم الأخلاقية قسمة ثلاثية في طرفها الأعلى فضيلة الإيثار والطرف الأدنى رذيلة الاستئثار، ولم يعتبر مبدأ المقاصة الدقيقة في الحقوق والواجبات فضيلة أو رذيلة؛ لأنه بمثابة رخصة مباحة لا يستحق المدح أو الذم وآية ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى:٤١-٤٣]، و﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ ﴾ [النساء:١٤٨]، و﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء:١٤٨].

فالنهي أولًا عن تعامل الناس بالفاحش من القول لأنه يستوجب غضب الله، مع استثناء من كانت إساءته ردًا لمظلمة، ثم وضع الخطة الحميدة والفضيلة المندوب إليها وهي خطة العفو حتى يستحق مغفرة الله ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ ﴾ [النور:٢٢].

يقول الدكتور دراز: «وهكذا تمضي إرشادات القرآن الحكيم

ناهية عن التزيد في حق النفس، خاصة على الزيادة في حق الغير، مخيرة المعاملة بالمثل دون نهي عنه أو تحريض عليه»[١]، هذه سمة أولى من سمات الفضيلة.

أما السمة الثانية فتتعلق بنفاذها إلى أعماق الضمير حتى يتشربها القلب فتصدر عنه بترحاب وطيب خاطر ومحبة، لا عن جهاد خلقي شاق، على عكس بيان الفلاسفة، فقد أشار مؤرخو الفلسفة إلى زعم سقراط أن الإنسان مجرد عقل فحسب، ثم أضاف أفلاطون إليه العاطفة، وجاء أرسطو فرأى أن الإنسان يشتمل أيضًا على إرادة فعالة، مبينًا أن الفضيلة ليست علمًا تنزع بصاحبه إلى العمل مع قصور الهمة، بل هي عمل يبرز إلى الوجود، ويحتاج إلى الرياضة والتدريب حتى يصبح عادة ثابتة وخلقًا راسخًا.

ولكنها في هذه الحالة قد تصبح الفضيلة عملًا آليًا تسخيريًا تمجه النفس.

---

(١) «نظريات في الإسلام» د. دراز (ص:١١٣ وما بعدها) بتصرف، تحقيق محمد موفق البيانوي - مكتبة الهدى - حلب ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

أما الفضيلة في القرآن الكريم؛ فهي ترتقي بالنفس الإنسانية لتصبح عملًا انبعاثيًا محببًا إلى القلب، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات:٦-٧].

وعلى العكس من ذلك، فإن فاعل الخير المفتقد لأريحية النفس له ليس خليقًا بأن يسمى خيرًا ويسجل القرآن المجيد هذه النظرات ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ [التوبة:٩٨]، ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤]، ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾ [النجم:٣٣-٣٤].

وقد رسم القرآن الحكيم الطريق العلمي لتربية الإنسان الفاضل مخاطبًا الفرد والمجتمع، فإذا كان المجتمع هو الأساس الأول الذي يقوم عليه بناء الدولة؛ فإن العناية بالفرد، وهو لبنة في بناء المجتمع يصبح ضروريًا وأساسيًا إذا أردنا لهذا البناء القوة والمنعة[١].

---

(١) «دراسات الإسلامية» د. دراز (ص:١٠٥، ١٢٧-١٢٨) بتصرف.

ويختلف الناس في سلوكهم بين المتخبط في الحضيض، أو المتهادي في القمة أو السائر وسطًا، وإذا أردنا الارتفاع بالمستوى الأدنى والأوسط إلى القمة، فعلينا البدء بالأخلاق لأنها أول الخيط الذي يصل بنا إلى الغاية.

وقد وضع الإسلام فلسفة إصلاح المجتمع وتقويمه على قاعدتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[(١)].

وعند تطبيق هذه القاعدة يرى الدكتور دراز أنها تتجه اتجاهين:

الأول: اتجاه إيجابي. الثاني: اتجاه سلبي.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [لقمان:١٧]، وذلك في إطار فردي، وللجماعة: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠]، ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات:٩].

---

(١) «نظرات في الإسلام» د. دراز (ص:١٠٢) بتصرف.

وفي حالة التداخل للإصلاح بين المتنازعين والحض على قول كلمة الحق حين يدعو الداعي إليها؛ فإن الساكت عن كلمة الحق شيطان أخرس ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣].

أما المثال المعبر بجلاء عن الاتجاه السلبي فإننا نعثر عليه في الثلاثة الذي تخلفوا عن غزوة تبوك إذ نفذ الرسول ﷺ مبدأ مقاطعتهم وأمر المسلمين جميعًا بالتنفيذ الشامل.

وهكذا رأينا كيف يحدد القرآن الفضيلة ويسمو بالإنسان للارتقاء الأخلاقي المنشود، ويصنع له الخطة التربوية لبناء المجتمع الفاضل.

وسنأتي إلى بيان تفصيل الفضائل المتعددة التي تميز بها الإسلام.

الإضافات الجديدة في الفضائل:

أما الجديد -كما يروي الأستاذ الدكتور دراز- فهو يظهر في الموضوعات الآتية[1]:

---

(١) «مدخل إلى القرآن الكريم» د. دراز (ص:١٠٥).

أولاً : في مجال الفضيلة الشخصية :

نجد في هذا المجال قاعدة جديدة ومبدأ جديدًا، اما القاعدة الجديدة فهي تحريم الخمر وتناول أي مسكر والقضاء على مصادر الخمر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠]، ودلالة التحريم في هذه الآية قاطعة لأن الأمر بالإجتناب قد سبق بوصف «الرجس» «والذي يقترن به ذكر أشنع ضروب الكفر والشرك وهو الإقبال على الأوثان هو أصرح وأبلغ في الدلالة على التحريم»[١].

أما المبدأ الجديد فهو النية باعتبارها لب العمل الأخلاقي فقد كان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يغري قومه بأرض الميعاد، والرخاء في الحياة الدنيا والنصر على أعدائهم ويظهر من دعوة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، طلب الإنصراف عن الحياة الدنيا لأن السعادة لا تتحقق فيها ولكنها في ملكوت السماء.

(١) «القرآن في التربية الإسلامية» مجمع البحوث الإسلامية - الشيخ/ نديم الجسر (ص:٦٥)، الآية ٦٠ من سورة المائدة.

ويجمع القرآن الكريم بين هذين الوعدين، لا كباعث أخلاقي، وإنما باعتبار أن الغاية التي يقصدها الإنسان الفاضل أعلى من هذا كله «إنه في الخير المطلق، أي في ابتغاء وجه الله تعالى الذي يجب استحضاره في القلب عند أداء العمل الإنساني بتنفيذ أوامره»[١].

لقد استقامت شجرة الفضيلة بأحكام التوراة والإنجيل، حيث حددت علاقات الناس بعضهم ببعض وقيامهم على أساس العدل والمحبة، وحفظهما القرآن، وأضاف إليهما تقنينًا في الأدب والذوق الاجتماعي في المظهر، نعثر عليها في آيات عديدة في سور كثيرة مثل سور النور والحجرات والأحزاب وغيرها.

ثانيًا: الفضيلة في العلاقات بين الأفراد:

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء:٨٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ﴾ [الحجرات:١٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ

(١) «مدخل إلى القرآن الكريم» د. دراز (ص:١٠٦).

تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور:٢٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب:٥٩].

ثالثًا: الفضائل الجماعية والفضائل العامة[(١)]:

يتضح من القانون الأخلاقي في اليهودية إقامة الحواجز بين الإسرائيليين وغيرهم، فالخير لا يتعدى دائرة الإسرائيليين أنفسهم، والنصوص الدينية تأمر بذلك مثل: «للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا»، «وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد».

وكان القانون المسيحي فضل إسقاط هذه الحواجز وإبطال الطابع العنصري، ومد مبدأ المحبة لاحتواء الإنسانية كلها، ولكنه لم يكرّز الاهتمام بتقوية رابطة الجماعة المسيحية نفسها.

ثم جاء القرآن ليوفق بين الفضيلة العامة التي توحد العلاقة في الأخوة الإنسانية -أي الأسرة العالمية الكبرى- والفضيلة الجماعية

---

(١) «مدخل إلى القرآن الكريم» د. دراز (ص:١٠٦).

داخل المجموعة الإسلامية، ففصّل وحدة الفضيلة العامة التي أمر بها الإنجيل من قبل، حيث وسع دائرتها لتهيمن على مجالات الحياة المختلفة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

وقوله ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة:٨].

وهكذا يعلمنا القرآن أنه توجد خارج الأخوة في الله، الأخوة في آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولكنه في الوقت نفسه يحدد مبدأين لحفظ كيان الجماعة الإسلامية، وهما:

أولًا: دعوة المؤمنين ليكونوا جماعة واحدة متماسكة:

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣].

والمسلمون في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، ومظهر المسلمين في الصلاة يعبر أصدق تعبير عن التضامن المطلوب، فالجميع يقفون

في صلاة الجماعة صفًا واحدًا لا فرق بين رئيس ومرؤوس، أو بين فقير وغني، يقفون جميعًا في اتجاه واحد وراء إمام واحد، كل منهم يدعو للجميع ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إنهم جميعًا يطلبون النجاح والفلاح، ليس فقط لمجموعة المصلين وإنما لجميع عباد الله الصالحين أينما كانوا -**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**-.

ثانيًا: وتتضح أهمية المبدأ الثاني من الناحية الأخلاقية، وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠]، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥]، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣]، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١٧]، فعلى المسلم دعوة أخيه المسلم إلى ما هو حق وعدل، ونهيه عن السوء، وأوجب القرآن على جميع المسلمين التعاون فينشر الفضيلة والتقوى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢].

وتحذر الآية الواردة بسورة الأنفال -السالف الإشارة إليها-

المسلمين بألا يتركوا المنكر يسود في مجتمعهم[١].

رابعًا: الفضيلة في المعاملات الدولية وبين الأديان:

لم تتح للديانتين اليهودية والمسيحية إقامة علاقات مع دول معادية، لكن الوضع اختلف في عصر النبي ﷺ، حيث أصبح أسوة في مجال الأخلاق وقائدًا في مجال السياسة أيضًا.

ونورد بعض المبادئ التي وضعها القرآن في الحرب الشرعية لدفع العدوان ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠]، ثم تتوقف الحرب عند انتهائها ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأنفال:٦١]، والأمر باحترام العهود والمواثيق في العلاقات الدولية ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل:٩١].

لقد اقتضت مهمة الرسول صلوات الله عليه وسلامه كسياسي، وقائدًا تشريعيًا أخلاقيًا لظروف الحرب والسلم، كما تبين لنا من هذه الآيات وغيرها، إلى جانب القواعد التي حددتها السنة[٢].

انتهى الكتاب بعون الله تعالى وتوفيقه وحده.

---

(١) «مدخل إلى القرآن الكريم» د. دراز (ص:١١٢).

(٢) «مدخل إلى القرآن الكريم» د. دراز (ص:١١٣).

فهرس

